الفصل الثاني

مرحلة الديانات الطبيعية

- ❐ ديانات ما قبل التاريخ.
- ❐ الديانة الإتروسكانية.
- ❐ الديانة الألطية.
- ❐ الديانة الألوتية.
- ❐ الديانة البلطيقية.
- ❐ الديانة الكلتية.
- ❐ الديانة الفيدية.
- ❐ الديانة الهندوسية.
- ❐ الديانة اللامية.
- ❐ دين السماء الصيني.
- ❐ ديانة الشنتو.
- ❐ الديانة اليزيدية.
- ❐ الديانة الطوطمية والإحيائية.
- ❐ الديانة الأسترالية.
- ❐ الديانة الألمانية .
- ❐ الديانة الإيجية.
- ❐ الديانة السلافية.
- ❐ الديانة الفنلندية الأوغرية.
- ❐ الديانة البراهمانية.
- ❐ الديانة البوذية.
- ❐ الديانة الجينية والسيخية والمهاريشية.
- ❐ ديانة الطاو (العقل أو الطريق).
- ❐ الديانة الزرادشتية والمجوسية.

الفصل الثاني

مرحلة الديانات الطبيعية

سوف نسير في تحليل الأديان العالمية، حسب المجموعات الدينية التي تدخل ضمن تقليد واحد، ومن ثم لن نسير حسب التسلسل التاريخي إلا عندما يقتضي منطق الارتقاء أو الانتكاس ذلك، وطبعًا سوف ننبه القارئ إلى التواريخ حتى لا يختلط عليه الأمر بين الترتيب المنطقي والترتيب التاريخي. وترتيب الديانات بالنسبة إلى بعضها البعض داخل المجموعات سوف نراعي فيه قدر الإمكان منطق التطور من أدنى إلى أعلى حسب الترقي في درجات ارتقاء تصور الألوهية، مع التأكيد أن هذا الارتقاء كثيرًا ما يتعرض إلى ارتكاسات واضحة، فليس المنطق الذي يحكم تتابع الأديان في التاريخ هو منطق التقدم التصاعدي. ومنطق العقل غير منطق التاريخ كما تبين لنا في الفصل السابق.

وعلى هذا الأساس يمكن القول - كما ظهر في الفصل السابق أيضًا - أن منطق تطور الدين في العقل، يسير من ديانات الطبيعة، وداخل ديانات الطبيعة نفسها يحدث تطور ينتهي إلى ديانات التسلسل الهرمي للآلهة المختلطة بالطبيعة، ثم تتحول في المرحلة التالية فتصبح على شاكلة البشر في ديانات التشبيه.

ثـم ترتقـي إلى أديان التعالي التـي تتطور داخليًّا مـن التوحيد غير الخالص إلى التوحيد الخالص، ومن الإلـه القومي إلى الإله العالمي، ومن التوحيد المعقد الملغز إلى التوحيد الواضح والكلي، ومن عقيدة الأسرار إلى عقيدة بلا أسرار.

وفي العـرض التالي سـوف نجـد أن تصور الإنسـان للألوهيـة يتطور في الوعـي، وفق المنطـق العقلي الذي أوضحنـاه في مطلع الفصل السـابق، ومن ثم فـإن منظومة تتابع مجموعات الأديان الطبيعية والتشـبيهية والمتعالية هي البرهان أو هي للتطبيق للنظرية سالفة الذكر التي فسرت كيف يرتقي الدين في نطـاق، وكيف يرتكس ثم يعاود التقدم، ثم يرتكس مرة أخرى، وهكذا. لكـن المحصلة العامة رغـم النقوص والارتكاس في كثير مـن الأوقات، هي تقدم الوعي الديني الإنساني في قطاعات كبيرة منه.

والمشـكلة الرئيسـية التي سـتواجهنا أننـا تواجهنا ديانـات مرت ببعض هـذه المراحل، أو تجمع بين خصائـص مجموعتين أو أكثر، مثل ديانات مصر القديمة. وهنا تنشـأ الإشـكالية: أين نضعها؟ هنا سـيكون المعيار هو السمة الأغلب، ولا يعني هذا بالضرورة أننا ننكر السـمات الأخرى؛ بل إننا نصنفها فقط حسب ما يغلب عليها في السياق التطوري؟

وفي المرحلـة الأولى لتطـور الوعي الديني نجـد أن منطق تطور الدين في العقـل، يبـدأ من ديانات الكـثرة في ديانات الطبيعة، وداخلها نفسـها يحدث تطـور من عبادة الطواطم والحيوانات وأرواح الأسـلاف، إلى عبادة مظاهر الطبيعـة. وفي كل مراحلهـا الداخليـة كان الامتزاج واضحًا بـين الطبيعي والإلهي. أى أن الإنسـان هنا لا يدرك حقيقة الظواهـر الطبيعية، ولا يحاول تفسـيرها وفق قانون العلية، و إنما يفسرهـا على أنها قوى عاقلة فاعلة بذاتها،

خصوصًا أن تعدد أحوال الظواهر الطبيعية بين أحوال مفيدة وأحوال ضارة، والحوادث الكونية المفاجئة مثل الزلازل والبراكين والفيضانات والصواعق والعواصف، ينشئ حالة من الخوف من المجهول عند الإنسان، ونظرًا لقصور منطقه العقلي، فإن ذلك كله يستثير خياله الذي يقوم بدوره بتأليه ظواهر الطبيعة، أو بإعطاء الألوهية صفات الطبيعة. وتشتمل ديانات الطبيعة على ديانات شركية تعددية، وفي مرحلة متقدمة منها يوجد فيها ديانات التسلسل الهرمي للآلهة، وهي التي تؤمن بتعدد الآلهة لكنها تخضعها لإله أكبر، فهي أديان الاعتقاد التراتبي في الآلهة، لكنها لا تزال آلهة ممتزجة بالطبيعة. وسوف تتحول في المرحلة الثانية فتصبح على شاكلة البشر.

ديانة ما قبل التاريخ Prehistoric Religion

إذا كان منطق العرض يستلزم البداية بأدنى درجات الوعي الديني في العقل، فلنبدأ بديانة ما قبل التاريخ Prehistoric Religion، وهي عبارة عن عبادات ومعتقدات دينية لشعوب ما قبل التاريخ، كما استدل عليها من البقايا الأثرية. وتعود أقدم الحفريات التي تشهد على اعتقاد في الحياة بعد الموت إلى الحقبة (5.000 - 30.000 ق.م)، وقد دفنت سلع مع الجثث مثل أدوات حجرية وأجزاء حيوانات، بافتراض محاولة استرضاء الميت أو إعدادهم للعالم القادم.

وتمنح حقبة العصر الحجري المتوسّط أول دليل على القرابين الحيوانية التي ربما كانت قرابين وعروضًا إلى الموتى، أو لقوّة أعلى، أو إلى خصوبة الأنواع الحيوانية. كما وجد القربان البشري قبل التاريخ أيضًا، من النساء والأطفال عادة.

منذ العصر البرونزي Bronze Age، غالبًا ما ألقيت أسلحة ومجوهرات في الينابيع، والآبار، ومجاري مائية أخرى كقرابين (من المحتمل من غنيمة الحرب).

ومنذ حقبة العصر الحجري الحديث كانت حيوانات مثل الدِّببة مهمَّة في دين قبل التاريخ، فربما تم النظر إليها كأرواح حارسة وارتبطت بالقوى السحرية. كما مورِسَت طقوس الخصوبة أيضًا، والتي تمت عن طريق تماثيل نسائية سمينة صغيرة، عرفت بتماثيل الزهرة الصغيرة، بصدور وأرداف breasts and buttocks بارزة جدًّا.

الديانة الطوطمية والإحيائية

مع بدايات التاريخ المسجلة، نجد أن الطوطمية ديانة كان لها في العصور القديمة انتشار في بقاع عديدة من العالم، في آسيا، و إفريقيا، وأستراليا، و في الأمريكتين بين الهنود الحمر، ولا تزال آثارها وبقاياها حية سواء ككيانات دينية مستقلة، أو من خلال تخفيها وتسربها إلى معتقدات قطاع من المؤمنين بالديانات الكبرى في العالم.

والطوطمية ديانة لها صور متعددة في القارات المختلفة، لكن ما يجمعها هو أنها تعبد الطوطم Totem الذي يشير إلى نوع الكائنات أو الأشياء التي يعتبرها أبناء القبيلة مقدسة، والطوطم هو بمثابة الجد الأعلى للقبيلة. وتكون الطواطم في أغلب الأحوال حيوانات، مثل: البقرة، النسر، الأوبوسوم (= حيوان أمريكي يتظاهر بالموت عندما يحيق به الخطر)، والببغاء، والجاموس، والثعبان.. وفي بعض الأحيان يكون الطوطم من النباتات مثل

شـجرة الشـاى، وفى أحيان أكـثر ندرة يكـون الطوطم من الجـمادات، مثل الكواكـب أو النجوم أو البحار. وتشـير عقيدة الطوطم إلى اعتقاد داخلى في قوة غيبية مقدسـة، وفى مبدأ يحدد مجموعـة من الجزاءات يتعين تطبيقها على كل مـن يحاول انتهـاك المحرمات taboo، ويعمل في الوقت نفسـه على دعم المسئوليات الأخلاقية في الجماعة.

ويرمـز الطوطم - سـواء أكان حيوانًـا أو نباتًا أو جمـادًا - إلى هذا المبدأ المقـدس من ناحية، وإلى الجماعة أو العشـيرة من ناحيـة أخرى. وعلى ذلك فإن الطوطمية تصنف كدين لأنها عبارة عن نسق من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالأشياء المقدسة.[1]

والديانـات الطوطمية سـحرية وأخذت في بعض مراحلها سـمة الديانة الإحيائية.

والديانة الإحيائية تقوم على مجموعة من المعتقدات الدينية التي تؤمن أن مظاهر الطبيعة كلها مسـكونة بأرواح خيرة وشريرة، يمكن التأثير فيها من خلال أقوال وحركات دينية معينة. وهذا هو أصل السـحر. وجدير بالذكر أن البعض يشـير إلى الإحيائية بمصطلح آخر هـو الحيوية. وقد ذهب تيلور وسبنسر إلى أن أقدم دين في الوجود هو الاعتقاد في الأرواح وعبادتها[2].

وفي مرحلة ما اختلطت الديانة الطوطمية بالديانة الإحيائية، وعلى سبيل

(1) لمزيد من التفاصيل حول الطوطمية ووجهة نظر علم الاجتماع الدينى، ولا سيما نظرية دور كايم، انظر: د. زيدان عبدالباقى، علم الاجتماع الدينى، ص 120 وما بعدها. وفيلسيان شالى، موجز تاريخ الأديان، ص 21 وما بعدها.

(2) انظر: د. على سامى النشار، ص 31.

المثـال ديانة الناجا التي تعبد الطواطم، وهي أقـدم ديانة في الهند قبل الغزو الآرى، وللثعابـين والأفاعـى مكانة خاصة مقدسـة في ديانـة الهند الأقدم، فالإلـه الأكبر هـو «ناجا» الإله الأفعـوان (= ذكر الأفعـى). وديانة الناجا ديانة طوطمية وهى أيضًا ديانة سـحرية إحيائيـة، تؤمن بحلول الأرواح في ظواهـر الطبيعة الحية والجامدة، والأرواح منهـا الطيب ومنها الشرير، ولا يحمى من الأرواح الشريرة إلا الرقى السحرية.

ولا تزال هذه الديانة موجودة في بعض المجتمعات البدائية في الهند، كما أنهـا تغلغلت فيـما بعد إلى الفيدية كما هـو واضح من سـفراتهارفا فيدا. ثم اسـتمرت في الوجود في الديانـة البراهمانية، ومن بعدها الديانة الهندوسـية، حيث تتضح في كل من هذه الديانات بقايا الديانة الطوطمية والإحيائية.

وآثـار الديانـة القديمة لا تزال مسـتمرة حتـى الآن في الهندوسـية، مثل تقديس بعض النباتات، وتقديس الأنهار، والممارسـات السحرية والتعاويذ والرقى. فضلًا عن عقيدة تناسخ الأرواح.

وتشير الاكتشـافات الأثرية الحديثة إلى كثير من مظاهر الدين في الهند القديمة قبل أن يغزوها الآريون، فأصغر البلدان والقرى كان لها مبان لإقامة الطقـوس. وقد عثر على أقنعة عديدة، الأمر الذى يشـير إلى وجود كهنوت. وتشـير التماثيـل الأنثوية الصغيرة - التي تؤكد أهميـة الحمل والرضاعة - إلى عبادة آلهة أنثوية، كما يشـير انتشـار تماثيل الثيران والحيوانات الذكورية الأخـرى إلى ديانة تهتم بالخصوبة، وتوحى تسـهيلات الاسـتحمام المتطورة بالعناية بالتطهير الدينى. وتدل الأشـكال المتخذة لأوضاع اليوجا والموجودة عـلى الأختام، عـلى أن اليوجا ربما كانت لها جذور في هـذه الديانة المبكرة،

وتؤيد الافتراض القائل بأن أديان الهند اللاحقة تمثل تزاوجًا بين الديانة الهندية الأصلية القديمة والديانة الآرية[1].

الديانة الإتروسكانية Etruscan Religion

معتقدات الشعب القديم وممارساته في منطقة إتروريا Etruria (توسكانا) غرب إيطاليا. اعتقد الأتروسكان Etruscans أن الآلهة عبرت عن طبيعتها وإرادتها في كل جانب من جوانب العالم الطبيعي؛ فكل طائر وكل حبة على سبيل المثال، كانت مصدرًا ممكنًا لمعرفة الآلهة. إن الخصائص التي تتميز بها آلهتهم البالغ عددها أكثر من أربعين إلهًا غالبًا ما كانت غامضة وقابلة للتغيير أو التبديل، مع أن بعضها كان قد تمت تسويته فيما بعد بالآلهة الرئيسة اليونانية والرومانية. اشتهر الإتروسكان بالتنبؤ divination؛ حيث أرادوا معرفة المستقبل، والبحث عن إشارات إلهية في البرق، وكبد الحيوانات التي تُذْبَحُ قُرْبانًا، ورحلات الطيور. وقادهم الاعتقاد في الآخرة إلى بناء قبور مؤثثة كمساكن للموتى. وتبنى الرومان كثيرًا من ملامح الديانة الإتروسكانية وخصائصها في وقت لاحق.

الديانة الأسترالية Australian Religion

ديانة سكان أستراليا الأصليين، مؤسسة على الأحلام. دعت إلى العيش

(1) جون كولر، فلسفات شرقية، المترجم إلى اللغة العربية تحت عنوان: الفكر الشرقي القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د. إمام عبد الفتاح، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1995، ص 46 .

بشـكل متوافق مع طريقة الحياة the way of life الموجودة في الأحلام، عبر أداء الطقـوس وطاعة القانـون. ومن خلال الأحلام والحـالات الأخرى من الوعـي المتبدِّل، يمكـن أن يتَّصل الأحياء بالعالم الروحي ويكتسـبون القوة منه. وربطت الأسـاطير، والرقـص، والطقوس الأخرى، العـوالم الطبيعية والروحيـة والإنسـانية معًا في نظام كـوني واحـد a single cosmic order. وتعتقـد أن روح الطفـل تأتي من الحلـم لتُحْيِي الجنـين، وأن التراث الرُّوحي spiritual heritage لشـخص أكثر أهمية من الرابطة بين والد وطفل طبيعي. وشمل الفن المقدس رسومات الكهوف، والرمل، وصوّرًا على قشر الشجر.

الديانة الألطية Altaic Religion

معتقدات الشـعوب الألطية وطقوسـها وأسـاطيرها، وهي على الأرجح، مجموعة من الشـعوب المرتبطة ببعضهـا لغويًّا، بمن فيها الأتـراك، والمغول. وهؤلاء من الشـعوب الناطقة بلغات تانجوس - مانشـو Tungus-Manchu. وكان العالم القديم يُسَمِّي الشعوب البدوية المختلفة التي تَسْكن أواسط آسيا بالسـكيثيين Scythians، والسـارماتينز Sarmatians (وهم الشعب الإيراني القديم)، والهونيين Huns. وكان الشـكل المميـز الأصلي للديانة الألطية هو الشـامانية Shamanism. ووراء هـذه العبادة كانت أسـاطير نشـأة الكون Cosmogony التي تعتقد أن السـماء عبارة عن خيمة تسـتند على أقطاب أو أعمـدة. ومن ثم اعترفت بوجود إله للسـماء، له أسـماء عديدة، وكذلك إلهة للأرض، وكانت الشمس هي «الشمس الأم»، وكان القمر هو « القمر الأب»، واعتبر الرعد روح الشر في شـكل التنين. وكان يُعتقد أن الروح مستقلة عن الجسـد، وأنها تتركه في مناسـبات معينة. أما الموتى فـكان يتم التخلص منهم

بطـرق مختلفة كالدفن، والحـرق. وكانت معدات المشرحـة معتادة، وكانت الديانـة الألطية تتصور العالم الآخر على أنه صورة من نسـخة متطابقة من هذا العـالم، وبذلك يكون نظامه انعكاسًـا لنظام هذا العـالم. ولقد تأثرت الشـعوب الألطية، إلى حد كبير، بالديانات الإيرانية، والمسيحية، والمانوية Manichaeism، والإسلام، والبوذية.

الديانة الألمانية Germanic Religion

معتقدات الشـعوب الألمانية وطقوسها وأسـاطيرها قبل ظهور المسيحية، في المنطقـة الجغرافيـة التـي تمتـد مـن البحر الأسـود عبر أوروبا الوسـطى و إسكندنافيا إلى أيسلندا وجرين لاند. انقرضت الديانة تمامًا في وَسْط أوروبا مع التحول صوب المسـيحية (القرن الرابع) لكنها اسـتمرت في إسكندنافيا حتى الـقرن العاشر. ويروي الأدب الإسـكندنافي القديم لأيسلندا الوسيطة (نسـبة إلى القرون الوسطى)، وخصوصًا شعر إيدا Poetic Edda (1200م)، ونثر إيدا (1222م)، تقاليد الآلهة الألمانية. واعتقد أن الأرض خلقت من رحم فراغ كوني سُـمِّي جينونججب؛ وفي رواية أخرى، الآلهة الأولى كونتها من جسـم أورجينير عمـلاق بدائي. كانت هناك مجموعتـان من الآلهة في هيكل الآلهة الألمـان: المحاربـون «أيسـير» Aesir، والزراعيون «فانـير» Vanir. تضمَّن الدين الألماني اعتقادًا أيضًا في أرواح حارسـة نسـائية، وجن، وأقزام. تمت المناسـك في العراء أو في البسـاتين والغابات؛ وتمت ممارسـة عادة تقديم القربـان الحيواني والبشري. ويطلق اسـم «راجناروك Ragnarok» على يوم نهاية العوالم أو يوم القيامة في الدين الألماني القديم.

الديانة الألوتية Aleut Religion

لا يزال، حتى الآن، هناك بعض الآثار التي تدل على وجود الديانة الأصلية للشعب الذي يسكن الجزر الألوتية (في الجنوب الشرقي لولاية ألاسكا). لقد ترسخت هذه الديانة عن طريق الروس في القرن الثامن عشر، ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام (1867م). ولما كان للجزر الألوتية باعٌ طويل مؤخَّرًا في مجال العمل التبشيريِّ المسيحي؛ فكان أول من عمل منهم بهذا المجال هم الروس الأرثوذكس، ثم عمل به البروتستانت. وتنحدر شعوب الجزر الألوتية من فصيلة الإسكيمو Eskimo، لكن لغتهم وبناءهم الاجتماعي مختلف عن اللغة والبناء الاجتماعي للإسكيمو Eskimo، ويعتمد اقتصادهم الأصلي بالكامل على البحر.

أما الآن فقد أصبح الكثير من تعاليم الديانة الألوتية مجهولًا، لكن تقارير «جوشيلسون» Jochelson تؤكِّد على أنهم يؤمنون بإله أعلى «Aleuxta Agudax». وبالنسبة للأساطير الأساسية في الديانة الألوتية، فهناك أسطورة كانت تُسمى أسطورة «الأم - الكلبة Dog-Mother»، أو «ماهاخا Mahakha»، وهناك أسطورة أخرى عن كائنين نصفهما إنسان والنصف الآخر ذئب. أما الذكر في الأساطير الألوتية فيُسمَّى «أكاجنيكاخ Acagnikakh». وهذا أَدْعى لعَقْد مقارنة بين هذه الأساطير وأساطير الأسكيمو. ومن الممكن تصنيف ممارسات الديانة الألوتية على أنها شكل من أشكال الممارسات الدينية السِّحْرية الشامانية Shamanism. حيث لم تكن هناك معابد، لكن كان يوجد العديد من مراكز العبادة التي كانت تُقام فيها الطقوس لاستعطاف الأرواح «Kugan» والسيطرة عليها. وأحيانًا كانت تُرفع صور أشخاص في هذه المراكز.

ومن بين الأشياء الشائعة المستخدمة في العبادة، كانت توجد الطبلة (بوصفها جزءًا مكملًا للممارسات الدينية السحرية)، وكان يوجد ما يسميه «جوشيلسون»، «كالوميت Calumet»، وهو عبارة عن زوج من العصا الخشبية أو الخيزران يتراوح طولهما بين قدم ونصف إلى أربعة أقدام، مطلية ومُزينة بأشكال رمزية. وكانت التمائم أيضًا واسعة الانتشار. وكان هناك سائل مصنوع من أنسجة الجسد الميت، وكان دهانًا قويًّا. ولا تزال احتفالات البلوغ (ولا سيما لدى الفتيات) تُقام من حين لآخر؛ حيث يتم عَزْل الفتاة، وتُمنع من دخول المعبد، وتُوضع تحت رعاية امرأة عجوزة، وتُمنع من تناول أطعمة معينة. وتستمر هذه العملية لمدة خمسين يومًا، يُعتقد أن الفتاة تسترد عافيتها خلالها. أما إجراءات دفن الموتى، فإنها تتضمن عادة الكشف على الجثمان، متبوعًا بحفظ الرُّفات في ملاجيء صخرية، وبالنسبة للمعتقدات المتعلقة بشأن مصير الإنسان فإنها تتشابه مع معتقدات الإسكيمو.

الديانة الإيجية Aegean Religion

يُسْتَخدَمُ هذا الاصطلاح لوَصْفِ ديانة كانت منتشرة في منطقة تتميَّز بثقافة متجانسة. وتتألف هذه المنطقة، التي تمثل الجزء الرئيس من أرض اليونان، وتمثِّل أحيانًا المنطقة الساحلية المجاورة لآسيا الصُغْرى وسوريا، تتألف من كريت، وقبرص، وجزيرة سيكلاديسCycladcs، وذلك قبل العصر الهللينتي (أي قبل عام 1200 ق.م). ومن الأفضل أن نُعالج هذا الموضوع في ضوء الديانة «الكريتية الميسينية Cretan-Mycenaean»، التي هي عادة وصف للشكل البدائي للديانة الإيجية، والتي سوف يَرِدُ ذِكر اسْمِهَا هي فقط في هذه الحقبة؛ فمنذ العصر الحجري الحديث Neolithic، والعصر

البرونـزي المبكـر تم العثور على كثـير من التماثيل لسـيدات عرايا، كانت موجـودة في الغالـب في قبور في كل مكان في المنطقة. وارتبطت شـهرة هذه الواقعة بذيوع شهرة الإلهة «سيبيل» Cybele فيما بَعْدُ في الديانة الكرتية؛ إذ إن الديانة الإيجية تتميز بعبادة إلهة الخصوبة والموت. وكان ظُهور مثل هذه العبادة في جزء من القارة الآسـيوية يرتبط بمنطقة بحر إيجه بعلاقات وثيقة، بمثابة تأكيد أيضًا على وجود عبادة الإلهة «سـيبيل». وثمة دليل في قبرص على أن الشـعائر تضمن إلهـة، وإله أو كاهن، ونسـاء راقصـات، وثعابين. ومن المؤكد أن الديانة الكريتية تُعتبر، في شـكلها الشائع، تفسيرًا للتعاليم الدينية الشائعة في منطقة بحر إيجه.

الديانة البلطيقية Baltic Religion

تُطْلَـقُ على المعتقدات والممارسـات القديمة للبلطيـق في أوروبا الشرقية. ويعتقد أنها تقدم دليلًا على وجود مصدر مشترك مع الدين الفيدي والإيراني. وكانـت أكـثر آلهـة البلطيـق أهمية هي آلهـة السـماء؛ «ديفز» (السـماء)، و«بيكونز» (الرعد)، و«سـول» (إلهة الشـمس)، و«مينيـس» (إله القمر). وكان شـائعًا عند كل شعوب البلطيق إله الغابة، أم الغابة. والإلهات جَسَّدْنَ السـمات المختلفـة للطبيعة. وتجسَّـد القـدر أو الحظُّ في الإلهة (ليـما)، التي حـددت مصير كل فـرد عند لحظـة ميلاده. واعتقـدوا أن المـوتى يزورون العالم ثانية كأرواح خيرة أو كأرواح شريرة؛ كما كان الشـيطان "فيلنس"، وكذلـك مخلوق شـبه ذئب معـروف بـ«فيلكسـس» أو «فيلكتـس» أيضًا، يرتكب الشر. ويمثل تركيب العالم الذي في مركزه شجرة العالم world tree، والعداوة بين «سـول» و«مينيسس»، موضوعات مهمة. وكانت المهرجانات

مؤشرًا على التحوُّل الصيفي، والحصاد، والزيجات، والجنائز. وكانت العبادة تتم في البساتين المقدسة والتلال الصغيرة؛ وكشف التنقيب عن معابد خشبية دائرية أيضًا.

الديانة السلافية Slavic Religion

معتقدات وممارسات دينية للشعوب السلافية القديمة في شرق أوروبا، شاملة الروس، والأوكرانيين، والبولنديين، والتَّشيكيين، والسلوفاكيين، والصِّرْبيين، والكرواتيين، والسلوفيين. اعتقدت معظم الأساطير السلافية Slavic Mythologies أن الله قد أمر الشيطان بإحضار حفْنَة من الرمل من قاع البحر وخلق الأرض منها. تميز الدين السلافي غالبًا بالثنائية: إله أسود يستدعى في اللعنات، وإله أبيض يتمُّ التَّضرع إليه للحصول على الحماية أو الرحمة. كما كانت آلهة النار والبرق شائعة أيضًا. يبدو أن الروس القدماء قد نصبوا أصنامهم في العراء، لكن سلافيِّي البلطيق بنوا المعابد وأحاطوها بأماكن مُقَدّسَة؛ حيث أُقيمت مهْرجانات وقدِّمت قرابين حيوانية وبشرية. تضمّنت مثل هذه المهرجانات أيضًا مآدب عمومية، غالبًا ما يُسْتَهْلك فيها لحم الحيوانات القربانية.

الديانة الكلتية Celtic Religion

مُعْتقدات وممارسات الكلتيين القدماء في بلاد الغال Gaul (تشمل الآن فرنسا وبلجيكا، والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين)، والجزر البريطانية. ركزت العبادة الكِلْتية على تفاعُل العنصر الإلهي مع العالم الطبيعي. اعتقدوا

أن الينابيع، والأنهار، والتلال، قد سكنتها أرواح حارسة، عادة أنثوية. وعبدت بعض الآلهة على نحو واسع، وارتبطت آلهة أدنى بقبائل أو أماكن معينة. وكان «لوجاس» Lugus هو أكثر الآلهة شُهْرة، والذي كان ماهرًا في كل الفنون، و«سيرنونوس» Cernunnos الذي كان إله الحيوانات؛ بينما دعيت إلهة البحار والخصوبة «إبونا» (في بلاد الغال)، و«ماشا» (في أيرلندا)، أو رهيانون (في بريطانيا). غالبًا ما جاءت الآلهة في مجموعات من ثلاثة آلهة. كان «الدرويديون Druids» هم كهنة الدين الكلتي واحتفظوا بتَقْليد شفهي ولم يتركوا كتابات. شملت المهرجانات الموسمية «سامهين Samhain» (1 نوفمبر)، الذي أشَّر بنهاية الصَّيْف وعمل كعيد للموتى، و«بلتن Beltane» (1مايو). واعتبرت أشجار البلوط، وشجرة الإيلكس، ونبات الهدال، مقدسة. وآمن الكلتيون بالحياة بعد الموت بالإضافة إلى تناسخ الأرواح.

الديانة الفنلندية الأوغرية Finno- Ugric Religion

منظومات اعتقادية للشعوب الفنلندية الأوغرية سبقت المسيحية، عاش معتنقوها في إسكندنافيا الشمالية، وسيبريا، والمنطقة البلطيقية، وأوروبا الوسطى. وتتضمن الجماعات الفنلندية الأوغرية الباقية: السامي Sami (اللابيين)، والفنلنديين، والأستونيين، والمجريين. وقاد التنوع الجغرافي والثقافي لهذه الشعوب إلى تطوير معتقدات دينية متنوعة. أكثر أساطير الخلق الفنلندية الأوغرية شهْرة هي أسطورة غواص الأرض، التي فيها يجبر الشيطان على الغوص إلى البحر ويجمع رملًا، منه يشكل الله الأرض. تتحدث الأسطورة الأخرى عن خلق العالم من بيضة كونية a cosmic egg. شملت

الآلهة الرئيسة في العادة إلهًا للسماء وأمًّا للأرض. وإذا كانت الآلهة الرئيسة بعيدة، فقد كانت هناك أرواح حارسة قريبة لتنظيم الحياة اليومية؛ استقرُّوا في مساكن، ومواقع طبيعية مثل البحيرات والغابات، وظواهر طبيعية مثل الريح أو النار. تمت ممارسة عبادة السلف Ancestor worship، وشملت الوظائف الدينية: شامانات Shamans، وكهنة القربان، وحراس الحرم، ونساء باكيات محترفات، ومؤدي مراسيم الزفاف. تراوحت مراكز العبادة بين أحرم مقدسة وطنية إلى بساتين مقدسة وأحجار قُرْبانية.

الديانة الفيدية[1]

غزا الآريون الهند في القرن العشرين قبل الميلاد[2]، والآريون هم قوم يوصفون الآن بـ «الهند أوروبيين» كانوا يستوطنون أصلًا شمال البحر الأسود بين جبال الكربات[3] والقوقاز[4]. وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم أرياس Aryas الذى يعنى النبلاء. وهم الذين تشكلت معهم الكتب الفيدية المقدسة. وعندما دخلوا إلى الهند لم يندمجوا بالزواج مع الهنود الأصليين، بل حافظوا على نقاء عرقهم وتميزهم، وتعاملوا مع السكان الأصليين على أنهم عبيد وخدم. ومن ثم أوجدوا نظام الطبقات المقفل الصارم على أساس دينى وهو ما سنتحدث عنه بعد ذلك.

(1) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى محمد عثمان الخشت، (مقارنة الأديان: الفيدية، البرهمية، الهندوسية).

(2) ويقال فى القرن السادس عشر قبل الميلاد، كما يقال فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

(3) سلسلة جبلية بوسط أوروبا فى تشيكوسلوفاكيا، وغرب أوكرانيا وشمال رومانيا.

(4) سلسلة جبلية تقع بين أوروبا وآسيا وتمتد من البحر الأسود إلى بحر قوزين.

وبطبيعة الحال كان الفرق بين الآرى والهندى الأصلى واضحًا على مستوى الشكل والبنية، فعلى حين كان الهندى الأصلى أسود اللون أو مائلًا إلى السواد وقامته قصيرة كان الآرى أبيض البشرة مائلًا إلى طول القامة. وتقدم لنا الفيدا بعض ملامح الهنود الأصليين على أن لهم جلدًا أسود، وبدون أنف، وأن لغتهم بربرية، ويعتنقون عبادة العضو الذكرى Linga[1] ويمتلكون قطعان الماشية بكثرة، ويسكنون مساكن محصنة. وتطلق الفيدا عليهم اسم الداسا كما تنسب بطولات الانتصار عليهم إلى الإله الفيدى الأشهر إندرا[2].

وبعد استقرار الآريين في الهند نشأت معهم الديانة الفيدية التي تطورت فيما بعد فأصبحت الديانة البراهمانية، التي تطورت بدورها إلى الديانة الهندوسية الحالية. وتطور ديانة ما إلى ديانة أخرى لا يعنى بالضرورة حدوث ارتقاء في الفكر الدينى، حيث إن حركة التطور في ديانة ما قد تعنى تقدمًا وارتقاءً، وقد تكون متضمنة لنوع من الارتداد لبقايا الماضى، وربما تتضمن حركة التطور مدًا وجزرًا بين الارتقاء والارتداد. هذه الملاحظة ينبغى تسجيلها هنا حتى لا يتوقع القارئ مثلًا أن الهندوسية أرقى من البراهمانية في كل جوانبها، فالبراهمانية أنضج بكثير وأرقى على ما يتضح معنا من تحليل الأوبانيشاد.

تظهر الألوهية في الديانة الفيدية من خلال الظواهر الكونية والطبيعية،

(1) سنشير بالتفصيل إلى هذه العبادة فيما بعد. وليس بصحيح ما ذهب إليه البعض من أن كلمةLinga مشتقة من الكلمة Link أى رباط أو مزاوجة أو قرابة، بل العكس هو الصحيح، فالكلمة الهندية هى الأصل.

(2) انظر: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ترجمة عبدالهادى عباس، سوريا، دار دمشق، 1978، جـ1، ص 243.

حيث تنظر هذه الديانة إلى الطبيعة نظرة مقدسة ذات قوى سرية نافعة ومدمرة معًا، جذابة ومرعبة، محيية ومميتة، فلم تكن الطبيعة - كما هى بالنسبة لنا - موضوعًا للتحليل والدراسة العلمية من أجل تسخيرها لمصلحة الإنسان، بل كانت هى مقر الألوهية كقدرة نظام، ومن ثم كأساس الحياة البيولوجية والوجود السعيد. وتبدو الطبيعة كنظام عجيب خارق وخاضع لقوى منظمة هى قوى الألوهية. و إذا كانت الألوهية مباطنة وحالة في الطبيعة، فإنها في الوقت نفسه منزهة ومقدسة؛ فالإله الفيدى فارونا مثلًا هو حارس النظام الكونى، وهو نفسه أيضًا النظام الكونى، كما أنه كذلك السماء اليومية التي تعتبر رمزًا له وعلامة على تنزهه.

وكان التفسير المنطقى الطبيعة لوحى الكونى المتعدد الأشكال في الديانة الفيدية، يكمن في الشرك، فهى ديانة مشركة تؤمن بتعدد الآلهة، حيث تعطى لكل إله مهمة محددة وقدرة خاصة تناسب شكلًا من أشكال الظواهر الكونية أو الطبيعية أو حتى الاجتماعية، فالآلهة متعددة ومقسمة تبعًا لقدراتها ومهماتها.

وهناك نوع ما من التوافق بين بنية مجمع الآلهة وبين بنية الكون؛ فتقسيم الكون إلى مستويات وأجزاء يقابله تقسيم الآلهة كذلك. بل إن بنية النظام الاجتماعي لها ما يوافقها في بنية نظام الآلهة؛ حيث تتوزع الآلهة في مستويات مثلما تتوزع الطبقات الاجتماعية.

ويمكن أن يلاحظ المدقق أن أسفار الفيدا لا تقدم الدين في صورته النهائية رغم أنها تزعم هذا، بل تقدم الدين وهو في طور التكوين. ولذا نشاهد في الفيدا الدين بداية من النزعة الطوطمية الإحيائية وانتهاء بوحدة الوجود.

ونـرى تحديـدًا ماهويًا لإله ما من الآلهة يتعارض مـع تحديد ماهوى لإله آخر، كما نجد تطورًا في تحديد العقيدة الخاصة بكل إله من مرحلة إلى أخرى. وعلى سـبيل المثال.. فإن «فارونا» كان في البداية، يحيط بالأرض، ورداؤه هو السـماء، وأنفاسـه هى الرياح. ثم تطورت عقيدته فصـار أعلى الآلهة مقامًا، وحارسًـا للقانـون الأبدى ومطبقه، وهـذا القانون هو «ريتـا» الذى كان في البداية قانونًا يحفظ حركة الكواكب والنجوم ثم صار قانونًا كونيًا شاملًا.

وأنشـأ عـدد الآلهة الكبـير في الفيدا مشـكلة حول تحديـد الإله الخالق للكـون، وهنا نجد تضاربات كثيرة. كما نجد كذلـك وحدة الوجود حيث يتحد أو يتوحد الخالق والمخلوق في شيء واحد.

وتُوجـه معظم الترنيمات في الفيـدا إلى الآلهة، وهى ذات دور جوهرى في أداء شـعائر العبادات. ومن الملاحظ أن الآلهة حسـب بعض نصوص الفيدا ليسـت حاملة لصفات بشرية، ولكنها في أحيان أخرى تحمل هذه الصفات؛ فاللاهوت الفيدى يتميـز في بعض نصوصه عن معظم أنواع اللاهوت بكونه الأقل تأثرًا بالسمات الإنسانية في تصويره للإله أو الآلهة.

وتنظـر الفيـدا إلى الآلهة كرمـوز للقوى الأساسـية للوجـود، فالكلام، والوعـى، والحياة، والماء، والنار، وغير ذلك مـن قوى الوجود، تعتبر من بين القـوى المباركة التي يرمز إليها كآلهـة في الفيدا، وهى تمثل القوى التي تخلق الحياة وتدمرها، والتى تسيطر على حركة الوجود[1].

والآلهة الفيدية ترمز لقوى الوجود، وهى ليست منفصلة عن الكون ذاته، فـكل من الروح ومادة الكـون ينظر إليهما على أنهـما متضامنان في الوجود

(1) جون كولر، الفكر الشرقى القديم، ص 47.

ذاته. ولأن الوجـود كان يُنظر إليه على أنه عاقل، بحكم ما في مضمونه؛ فإن الكـون الوجـود كان يُنظر إليه على أنـه عاقل، بحكم مـا في مضمونه، فإن الكون قد نُظر إليه باعتباره كلًا منظمًا، والنظام الكامن في ضروب الانتظام العضوية يمضى إلى عمـق أكبر ليصل إلى قلب الوجود، وهذا النظام العميق، هـو نظـام الريتا Rita الذى يقـدم قواعد للتعبير عن الوجود، سـواء كانت قواعد أخلاقية أو نفسية أو جمالية أو دينية[1].

ولأن الريتـا تعتـبر الإيقـاع الجوهـرى للوجـود، وبنية هذا الوجـود، فإنها تحتل مكانـة جوهرية أكثر من الآلهة، فالريتا بوصفها النظام الكونى الشـامل تشـكل الواقع أو الطبيعة الحقة التي تنظم الأشـياء. وتسمى أيضًا الدهارمان في السنسكريتية الكلاسـيكية. ويلاحظ في علم الأديان المقارن أن عقيدة الريتا توجـد كذلك في «الأفسـتا» النص المقدس للديانة «المزدكيـة» في إيران، تحت اسـم «إشـا». وتوجد كذلك عند الفرس الإخمنيديين تحت اسـم «آرتا». ويرى جـان فيلوزات[2] أن هذا التشـابه قد يكون مـن بقايا هندية إيرانية مشـتركة سـابقة تاريخيًّا. ومـن المحتمل أن يكون أحدث زمانيًّـا، وتوالد بحكم علاقات الجوار بين الإيرانيين والهنود والتفاعل المسـتمر بينهما، لكن ينبغى التوكيد على أن هذه العقيدة أكثر انتشارًا وتغلغلًا في الهند منها في إيران، وربما يرجع ذلك إلى التطورات والتحولات التي حدثت في عقائد الإيرانيين بعد اعتناقهم الإسـلام.

وغـنى عن البيان أن مفهوم «الريتا» عند الهنـدوس، أو مفهوم «آرتا» عند

(1) المرجع السابق، ص 47.

(2) جان فيليوزات، فلسفات الهند، ترجمة على مقلد، المنشورات العربية، المطبعة البوليسية - جونية، 1976، ص 8 - 9.

الفرس الإخمنيديين، أو مفهوم «إشا» في «الأفستا»، يختلف عن مفهوم «القدر» في الإسلام، حيث إن القدر في الإسلام هو فعل إلهي، أو هو مشيئة الله وسنته الكونية. ولذلك فالقدر ليس قانونًا يسرى على الله ذاته، وهذا بخلاف المفاهيم السابقة التي ترى أن الله أو الآلهة تخضع لفعل هذا الناموس الكونى.

وتنظر الفيدا إلى الإنسان في تكوينه وحياته نظرة تجعله موازيًا للطبيعة، فجسم الإنسان مكون من العناصر ذاتها التي توجد في الطبيعة. والأجسام الصلبة والأرض والسوائل العضوية، والماء والحرارة الجسدية، والنار والأنفاس والهواء، كلها لها ما يوازيها في الإنسان. النار مثلًا توازيها الصفراء، والهواء توازيه الأنفاس، ولا يقصد بالأنفاس هنا التنفس الرئوى، بل كل التحركات وكل مظاهر الحياة. ومن ناحية أخرى، تبين بعض النصوص الفيدية أن الكون مركب على هيئة إنسان، أعضاؤه هى الأراضى، وشرايينه هى الأنهار، وأنفاسه الهواء.

ومن هذه الأعضاء تشتق المراتب الوظيفية للمجتمعات الإنسانية، فالبراهمة هم حملة الكلمة ويشكلون الرأس، والمحاربون بمثابة الأذرع، والمزارعون هم المعدة، أما العمال فهم يناظرون الأرجل. ولا تنظر الفيدا إلى العناصر الإنسانية والكونية نظرة حسية فقط، فالكلام مثلًا ليس صوتًا فقط، وإنما يتضمن قدرة خفية.

وتكمن الذات الموحدة لكل العناصر وراء كل المظاهر الحسية المتنوعة. كما يكمن في قلب الوجود كائن واحد محرك لكل شيء في العالم سواء أكان من ظواهر الطبيعة أم من الآلهة، هذا الكائن هو الجوهر المشترك لكل شيء في الوجود، وهو قوة مجهولة لا يمكن وصفها أو تحديدها في كثير من نصوص الفيدا.

نشأة وخلق العالم في الفيدية:

توجد نظريات أو أساطير متعددة عن خلق الكون ونشأته في اللاهوت الفيدى..

تقول الأسطورة الأولى - إن الخلق تم عن طريق تخصيب المياه الأزلية، حيث كان الإله مثل الجنين الذهبى أو البيضة الذهبية يرفرف على سطح المياه الأزلية، وعندما اخترقها تمت عملية الإخصاب للمياه التي تولد إله النار آجنى وتضع الريج فيدا البذرة الأولى التي تلقتها المياه مع الصانع العالمى فيشفاكرمان. وهنا تمثل الأسطورة الجنين الذهبى كبذرة الإله الخالق الهائمة على المياه الأزلية[1].

وتشير الأسطورة الثانية إلى أن نشأة العالم جاءت نتيجة تضحية الآلهة بالمارد الأولى بوروشا Purusa، حيث خرجت من أجزاء جسده كل الكائنات والظواهر الكونية والطبقات الاجتماعية الأربع في الهند بل خرجت الآلهة كذلك!. (لا تستغرب وجود التناقض هنا فهذه سمة اللاهوت الفيدى بامتياز) تقول الأسطورة الفيدية: «كان لبوروشا ألف رأس، وألف عين، وألف قدم. إنه حضن الأرض من كل الجوانب، ولم يكن بعيدًا. بوروشا هو الكل، ما كان وما سيكون. إنه رب الأبدية التي ينميها بالطعام (الأضاحى) .. عندما وزع الآلهة أمامهم الأضحية، كان بوروشا التقدمية[2]..».

(1) ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، جـ1، ص 12.

(2) هذا النص ترجمه من السنسكريتية ادوارد ج. توماس فى أناشيد فيدية من كتاب «حكمة الشرق» لندن عام 1923. وقد اقتبسه: د. سرفبالى رادا كرشنا، ود. شارلز مور فى كتاب «الفكر الفلسفى الهندى»، ترجمة ندوة اليازجى، دار اليقظة العربية، 1967، ص 48.

وتشير الأسطورة الثالثة إلى خلق العالم بفصل السماء عن الأرض، وتقطيع اندرا للتنين فريترا Vritra.

أما الأسطورة الرابعة، وهى الأشهر، وتوجد في الكتاب العاشر من الريج فيدا، فتقول: «في البدء لم يكن هناك وجود ولا عدم، لا وجود للعالم، فتلك السماء الوضاءة لم تكن هناك، كلا ولا كانت برودة السماء منشورة في الأعالى، فماذا كان لكل شيء غطاء؟ ماذا كان موئلًا؟ ماذا كان مخبأ؟ أكانت المياه بهوتها التي ليس لها قرار؟ ولم يكن ثمة موت، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود، ولم يكن هناك فاصل بين النهار والليل، و«الواحد الأحد» لم يكن هناك سواه، ولم يوجد سواه منذ ذلك الحين حتى اليوم، كانت هناك ظلمة، وكان كل شيء في البداية تحت ستار من ظلام عميق - محيط بغير ضياء - والجرثومة التي لم تزل كامنة في اللحاء برزت طبيعة واحدة من الحر والحرور، ثم أضيف إلى الطبيعة الحب، وهو الينبوع الجديد للعقل - نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون - إذ هم يتأملون- هذه الرابطة بين ما خلق وما لم يخلق، فهل هذه الشرارة جاءت من الأرض، وتتخلل كل شيء وتشمل كل شيء، أم جاءت من السماء؟ ثم بذرت الحبوب، ونهضت جبابرة القوة - فالطبيعة في أسفل، والقوة والإرادة أعلى - من ذا يعلم السر الدفين؟ من ذا أعلنه هاهنا، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها؟ إن الآلهة أنفسها، جاءت متأخرة في مراحل الوجود - من ذا يعلم أنى جاء هذا الوجود؟ إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم سواء خلقه بإرادته، أو صدر عنه وهو ساكن، إنه هو ربنا الأعلى في السموات العلى، إنه هو يعلم السر - بل لعله يعلم من السر شيئًا»[1].

(1) اقتبسه ول ديورانت في: قصة الحضارة، الجزء الثالث من المجلد الأول، ترجمة=

وثمة أساطير أخرى في الفيدا لها رأى آخر في نشأة الكون، غير أن الأربع السابقة هى الأكثر ذيوعًا. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أصل الفيدا ليس أصلًا واحدًا، وأن هناك أيدى كثيرة أسهمت في كتابتها في عصور مختلفة، لكن ما يلفت النظر حقًا هو وجود كل تلك الأساطير المتعددة والمتباينة تباينًا شديدًا في كتاب واحد فقط ينظر إليه أتباعه باعتباره مقدسًا وذا أصل إلهى!

الشعائر والطقوس في الفيدية:

قد تكون العبادة في ديانة ما شأنًا خاصًا وحميمًا وعلاقة فرد متناهٍ بفرد لا متناهى، حيث تدخل الأنا الإنسانية مع الذات الإلهية في حوار شخصى متفرد. لكن في ديانة أخرى تكون العبادة شأنًا جماعيًا واجتماعيًا، وفى الغالب، قضية دولة وأمة. وتجمع بعض الديانات الشاملة بين الحالتين السالفتين للعبادة، مثل الإسلام.

وتكون العبادة شأنًا جماعيًا في أى ديانة تجعل مهمتها الأساسية تأمين بقاء العالم المهدد من قوى الشر، وازدهار المجتمع، والمصالحة مع الألوهية، وخصوبة الناس والقطعان والزراعة. بيد أنه يمكن أن نجد في بعض

= د. زكى نجيب محمود، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، طبعة دار الجيل - بيروت وهى مصورة عن النسخة الأصلية، بدون تاريخ، ص 41 - 42.
والنص المقتبس ترجمة الى الإنجليزية ماكس مولر. انظر
Smith, Oxford History, P. 20.
وترجمة جون كولر مع اختلافات مع الترجمة الأولى فى كتابه: الفكر الشرقى القديم، ص 49 - 50.

الديانات الشـاملة ذاتها التـي تعتبر الخلاص فرديًا في المقـام الأول - نجد أن مفهـوم الجماعة قد احتفظ بأهميته، حيث إن الخلاص يسـتلزم الانتماء لفئة و يستوجب الانخراط في تنظيم.

ومن ثم فإنها تشرع شرائع وأنظمة، الأمر الذى يجعلها تقع تحت سـيطرة القوانـين الاجتماعيـة والثقـل الاجتماعـي لطبقـة الكهنة. وهذا مـا يتجلى عـلى نحو واضـح في الديانة الفيديـة، حيث يقوم الكهنة بمختلف الشـعائر والطقوس عندما تمارس الشعائر بشكل جماعي.

والعبادة الرئيسـية في الديانة الفيدية هى التضحية؛ حيث إن الفيدا تؤكد عـلى أن أرواح الموتى بحاجة إلى التغذية بالأضحيات الجنائزية، بل إن الآلهة بحاجة أيضًا إلى أن تقدم لهم الأضاحي، ويحتفل بها بمساعدة النار، و يصب لهم السوما السائل المخلِّد (انظر ما سنقوله لاحقًا عن الإله سوما). إن التضحية في العقيدة الفيدية تقيم أود الآلهة، بل إن التضحية تخلق الآلهة، كما أن التضحية التي خلقت الآلهة وأقامت أودها، تجعل هذا الآلهة تشبع الرغبات الإنسانية، وتحقق مطالب الإنسـان في طول العمر والغنى و إنجاب الذكور.

وتتوحـد عناصر الأضحية في الفيدية مـع أجزاء الكون، كما كان ينظر إلى التضحية - كما ألمحنا أعلاه - على أنها تمثل فعل الخلق مرة أخرى، وتؤدى دورًا لا بـد منه في المحافظة على النظام الكونى؛ مما يعنى أن الكون ككل بما فيه النظام الأخلاقى يعتمد على شعيرة الأضحية[1].

(1) انظر: جفرى بارندر (مشرف على التحرير)، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبدالفتاح، ومراجعة د. عبدالغفار مكاوى، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، 1993، ص 152.

ويلاحظ أن الديانة الفيدية ليس لها معابد أو هياكل مخصصة لممارسة عملية العبادة أو التضحية. وهذه حالة تكاد تكون استثنائية في الأديان؛ لأن معظم الديانات تصنع معابد ومذابح باعتبارها أماكن الاتصال بين الإنسان والله، وقد شيدت الهياكل، في البدء، في أماكن اعتبرت مقدسة، حيث أقيمت حولها الحواجز والأسوار. وعلى سبيل المثال فإن العبرانيين قد بنوا هياكلهم فوق المرتفعات والتلال. وساد الاعتقاد أن إقامة الهياكل في الهواء الطلق تتيح للإله الظهور بمظهر برق يحرق الضحية. والسؤال الذى يطرح نفسه في هذا السياق: متى أخذ الناس يعتقدون بأن آلهتهم تستطيع أن تسكن لا في أماكنها الخاصة بها، بل في بيوت ومساكن يصنعها الإنسان؟ وماذا كان هدف الهيكل الأساسى؟ هل الاستيلاء على الإله والتفرد بامتلاكه أم مجرد إكرامه؟ أم أن هذا من أجل تحديد وجهة جغرافية توحد اتجاه أهل الديانة؟ أم رغبة الكهنة في احتكار حق التعامل مع الآلهة واستغلال هذا لتحقيق مصالحهم؟ لا توجد إجابة واحدة محددة وقطعية عن هذا السؤال. ومن الملاحظ على العموم أن الإنسان في الديانات الطبيعية والتشبيهية عنده ميل غالبًا إلى بناء معابد وبيوت للآلهة أو للإله.

وتعد الفيدية استثناء من الحالة السابقة؛ فهى لم تشيد معابد؛ حيث كانت طقوس العبادة والتضحية تمارس في منزل الأسرة، أو في أرض خلاء. وكان يُقدم في هذا الطقس قرابين أو تقدمات نباتية وتقدمات حيوانية. أما النباتية فمنها الحبوب والكعك، وأما الحيوانية فهى الحصان والماعز والثور. وعندما تمكنت الريج فيدا وسيطرت أصبح شراب السوما المقدس هو أهم ألوان ممارسة العبادة والتضحية.

وتنقسم العبادة بالتضحية في الديانة الفيدية إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول - منزلى: يمارس في نطاق الأسرة بواسطة الأب ومساعدة زوجته، وهى تضحية تتوقف على مقدرة الأسرة، وليست ذات تعقيدات شعائرية بالقياس إلى النوع الثانى الذى يمارسه الكهنة أو النوع الثالث الذى يمارسه الكهنة والسلطة الملكية.

النوع الثانى - جماعى: يمارس في الخلاء بواسطة الكهنة، وكان عددهم غير ثابت؛ حيث كان يزداد عندما تكون الطقوس أكثر تعقيدًا، وفى نص غير ملزم في الريج فيدا يكون عددهم ثمانية بما في ذلك الشخص صاحب التضحية.

ويضم فريض الكهنة:

(1) **البراهمان (الشخص المنسوب إلى البراهمان):** وهو على رأس الفريق؛ حيث يعتبر تجسيدًا للبراهمان (= مبدأ العالم)؛ وهو يؤمن بحضوره الاتصال المباشر بالإله؛ لأنه يمثل السلطة المقدسة، ويجلس وهو طاهر متعطر في الوسط، ولا يتدخل إلا عند ارتكاب مخالفات في تقنيات الطقس. ويتلقى نظرًا لأهميته ومكانته نصف التضحية.

(2) **الهَدْ فاريو ومساعدوه:** الذين يتولون القيام بالأعمال المادية.

(3) **الأوغاتار وفرقته:** الذين يؤدون الترانيم.

(4) **الهُوتار:** الذى يريق السائل المقدس، ويتلو مقاطع من الريج فيدا.

وكان جزءًا من الأضحية الذى يلقى في النار يصل إلى الآلهة بواسطة إله النار آجنى. بينما نصف الباقى للبراهمان، ويذهب ما تبقى إلى المضحى

والكهنة الذين يحصلون على أجر مناسب من المضحى، كأن الجميع يشتركون في الطعام والشراب الإلهى.

ويلاحظ أن جور الكهنة كان كبيرًا؛ فهم وحدهم الذين يعرفون ما يجب أن يقال من ترانيم وصيغ مقدسة. ولقد حافظوا على دورهم وامتيازاتهم؛ إذ إنهم - رغم ممارستهم السحر - يحظرون ممارسته على الآخرين. لكنهم يمارسونه لحسابهم وحساب من يدفع لهم ثمنًا، وكانوا يفضلون البقر كثمن، وكانت غالية في ذلك الوقت، ويستندون في موقفهم إلى النشيد العاشر من الكتاب العاشر من الريج فيدا الذى يقول: «إذا أعطيت بقرة للبراهمة كسبت كل العوالم».

ولقد اعتبر الكهنة الترانيم التي يتلونها ذات قوة سحرية مستمدة من البراهمان المبدأ المحايد الذى يستمد منه البراهمان البشرى المجسِّد له السيطرة على الترانيم المقدسة. ويمكن الحصول على فاعلية القربان بالتلاوة الدقيقة المتأنية للترانيم؛ مما يكشف عن الأهمية القصوى للكلمات؛ الأمر الذى أدى إلى نشوء علم لتحليل الأصوات وقواعد النحو.

النوع الثالث - ملكى: يعد هذا النوع بطبيعة الحال أكبر أنواع العبادة بالتضحية في الديانة الفيدية.

وينقسم إلى ثلاثة أصناف على النحو التالى:

(1) الراجاسويا Rajasuya: ويُقام في حفل مقدس لتنصيب الملك، ويشتمل على تفصيلات معقدة تنتهى في مرحلتها الأخيرة إلى نضح الماء مع مجموعة من السوائل المقدسة على رأس الملك.

(2) **الفاجاييا Vajapeya**: ويعنى شراب القوة الذى يستخدم لتجديد الشباب في حفل مقدس يتضمن سباق العربة والصعود المصطنع التمثيلى للملك وزوجته إلى السماء بواسطة سلم.

(3) **الاشقاميدا Ashvamedha**: وهو التضحية بالحصان، التي تعد من أكثر التضحيات شهرة وأهمية، وتصنع للملك المنتصر وفق طقوس خاصة ربما لا فائدة من ذكرها. وتهدف هذه التضحية إلى نقل قوة الحصان الكامنة إلى الملكة. مما يعود عليها بالصحة والقوة هى وسائر الأسرة المالكة[1].

وفى مجال المقارنة بين الأديان، ينبغى تسجيل أن التضحية بالحصان في الديانة الفيدية له ما يشابهها في ديانات الفرس القدماء واليونانيين والجرمان، واللاتين والأرمن[2] لكنها لا تمارس بمثل التعقيد الأسطورى اللاهوتى الذى تمارس به في الديانة الفيدية.

هذا باختصار وتبسيط شديد طائفة من العبادة بالتضحية في الديانة الفيدية، وثمة أنواع أخرى كثيرة نذكر منها فقط التضحية بالإنسان، أو الشروع في التضحية به، ثم يفرج عنه في آخر لحظة، ويضحى بدلًا منه بحيوان. وهذا القربان ربما يستدعى - مع الفارق في الدافع والدلالة الدينية - المقارنة بينه وبين قربان النبى إبراهيم عليه السلام عندما شرع في التضحية بابنه إسماعيل - حسب الإسلام[3] - أو ابنه إسحاق حسب اليهود

(1) قارن: المصدر السابق، ص 150.

(2) ذهب إلى هذا الرأى: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، جـ1، ص 271.

(3) لمزيد من التفاصيل حول موقف الإسلام وأدلته على أن إسماعيل كان هو الذبيح،=

والمسيحية[1]، ثم أُنقذ بتدل إلهي في آخر لحظة، وتم فداؤه بذبح حيوان. والخلاف بين اليهودية والمسيحية من جهة والإسلام من جهة أخرى، حول اسم الذبيح من بنى إبراهيم، لا تقف أهميته عن مجرد البحث التاريخى الذى يراد به مجرد العلم باسم الذبيح من بنى إبراهيم؛ إنه اختلاف يتعلق به اختيار الشعب الموعود، و يتعلق به الحذف والإثبات في سيرة إبراهيم ليتصل بذرية إسحاق، و ينقطع عن ذرية إسماعيل، أو ليثبت من سيرته كل ما يتعلق بإسرائيل و ينقطع كل ما يتعلق بالعرب، و إن هذا النزاع قد بدأ قديمًا قبل تدوين نسخ التوراة التي كتبت في بابل، أى قبل الميلاد بعدة قرون[2]. فهذه إذن مسألة بالغة الأهمية، و إن كان الخوض فيها بالتفصيل ليس من شأن هذا السياق الذى نتحدث فيه، و إنما من شأن سياق آخر في كتاب آخر إن شاء الله.

ضرورة التمييز بين الفيدية والبراهمانية والهندوسية:

يخلط كثير من الكتاب بين الفيدية والبراهمانية والهندوسية، و يقدمونها على أنها ديانة واحدة. وهذا ليس دقيقًا، لأن التتبع التاريخى يكشف عن ثلاث ديانات متتابعة في التاريخ وليست ديانة واحدة، مع التأكيد على أن كل ديانة من الديانتين اللاحقتين لا تلغى ما قبلها إلغاء تامًا، فالديانة السابقة تكون بمثابة العهد القديم بالنسبة للعهد الجديد كما هو الحال في الديانة المسيحية مثلًا.

= انظر عبدالوهاب النجار، قصص الأنبياء، بيروت، دار إحياء التراث العربى، 1986، ص 102 - 103 والفخر الرازى، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، مصر، دار الغد العربى، 1993، جـ 13، ص 247 - 249.

(1) لمزيد من التفاصيل حول موقف اليهودية والمسيحية، انظر: سفر التكوين. وقاموس الكتاب المقدس، مصر، دار الثقافة، 1991، ص 66.

(2) انظر: عباس محمود العقاد، إبراهيم أبو الأنبياء، القاهرة دار نهضة مصر، 1993، ص 82.

فالفيديـة هى العهد القديم بالنسـبة للبراهمانية العهـد الجديد، وكل من الفيدية والبراهمانية معًا بمثابة العهد القديم بالنسـبة للهندوسـية التي تصبح بدورها عهدًا جديدًا إذا جاز لنا اسـتخدام مصطلحات الديانة المسيحية هنا مع وضع الفارق في الحسبان؛ فالمسيحية في شكلها الحالى هى ديانة مختلفة عن اليهودية، ومع ذلك فهى تؤمن بالتوراة وأسفار أنبياء بنى إسرائيل التي تشكل العهد القديم فيما يسـمى بالكتاب المقـدس، والبراهمانية هى ديانة متطورة عـن الفيدية، ومع ذلك فهى تؤمن بأسـفار الفيدا الأربعة، و إن كانت تعطل كثـيرًا من عقائدهـا وآلهتها، وتتجاوز اتجاهاتها في رؤيـة الألوهية والكون والحياة.

كذلـك الديانة الهندوسـية رغم أنها لا تنكر قدسـية الفيدا ولا البراهمانا ولا الأوبانيشـاد، وتأخـذ ببعض عقائد وآلهـة الفيديـة والبراهمانية، إلا أنها تتضمـن من العناصر العقائدية الجديدة ما يجعلها ديانة متمايزة عن الديانتين السـابقتين مع أنها تؤمن بهما على سبيل أنهما يشكلان عهدين قديمين بالنسبة للعهـد الجديـد الذى تقدمه هى، تمامًا مثلما تؤمن المسـيحية الحالية بأسـفار التوراة وأسفار أنبياء بنى إسرائيل.

ويمكن التمييز بين الديانة الفيدية والديانة البراهمانية والديانة الهندوسية على أسـاس عدة محاور رئيسـية؛ حيـث إن كتب الفيدية وضعت ما يسـمى بطريق النشاط أو العمل أو الجهد «الكارما مارجا Karmamarg». أما كتب البراهمانيـة، وخصوصا الأوبانيشـاد، فقـد وضعت طريق التأمـل والمعرفة «الإينانا مارجا - Inana - marga». بينما وضعت كتب الهندوسـية، ولا سيما البهاجافاد - جيتا طريق العبادة «البها كيتمارجا Bhakitmarga».

وبينما يمارس الهندوس عباداتهم في معابد، فإن أتباع الديانة الفيدية لم يعرفوا المعابد، وكانوا يمارسون عباداتهم إما في الدار أو في أماكن مفتوحة.

ويقوم أتباع الهندوسية بأداء عباداتهم وتقديم قرابينهم في حالة من الحب للآلهة، والرغبة في عطفها دون جزم بأنها لا بد أن تستجيب. وفى المقابل كان أتباع الديانة الفيدية يعتقدون أن أضحياتهم لابد من أن تلزم الآلهة بالاستجابة لكل طلباتهم. ثم إن الهندوسية مليئة بتماثيل الآلهة وصورها، والهندوس يعبدونها كرموز دالة على الآلهة. لكن أتباع الديانة الفيدية لم يرتبطوا بتمثال أو صورة لإله. وفى الوقت الذى تقدس فيه الهندوسية حجر اللنجا وهو صورة للقضيب الذكرى المنتصب كرمز للإله شيفا، كانت الديانة الفيدية تحرم ذلك وتلعن من يفعله.

وإذا كان الخلاص هو غاية كل هندى قديمًا وحديثًا، فإن النظرة إلى وسائل الخلاص تختلف وتتباين بين الفيدية والبراهمانية والهندوسية؛ فالخلاص في الفيدية يتم أساسًا عن طريق الأضحيات، في حين أن الخلاص يتم أساسًا في البراهمانية بواسطة التأمل والمعرفة، بينما الخلاص في الهندوسية رغم أن وسائله متعددة إلا أن السمة الغالبة أنه يأتي بالإيمان والحب والولاء.

الديانة البراهمانية

تمثل الديانة البراهمانية مرحلة أرقى وأعمق من الديانة الفيدية؛ حيث إنها تخلت عن كثير من مظاهر التفكير الدينى الطفولى؛ فضلًا عن نزوعها لا نحو التوحيد فقط، بل نحو وحدة الوجود أيضًا؛ حيث اعتبرت أن الحقيقة

الأصليـة واحـدة وما الآلهة إلا صور لهـا، وما كائنات العـالم كله إلا شيء واحد هو البراهمان.

وقد ظهـرت الديانة البراهمانية حـوالى القرن الثامن قبـل الميلاد على يد مجموعة من الحكماء الذين لم يكونوا ليقتنعوا بأن الخلاص يمكن أن يأتى عن طريق الأضحيات والقرابين التي تنص عليها الديانة الفيدية السابقة، بل عن طريق التأمل الباطنى المجرد، والتطهر من عوالق الحس والمادة. ولكن تجاوز التضحية لم يتم دفعـة واحدة، حيث تم تطوير معنى الأضحية في البراهمانا أولًا، ثمـن تم التقليل من أهميتها في الأوبانيشـاد، ورغـم وجود بعض المقاطع فيها التي تذكر الأضحية، فإن الميل العام الغالب لا يعترف بجدواها.

ويـرى حكـماء البراهمانيـة أن عالمنا العادى بأشـيائه الماديـة، وبعقوله الفردية، عالم غير محكم، وغير متكامل، ولا يعدو أن يكون ظواهر حسـية محـدودة. ولذا فإنه لا يمكن أن يكون هو الحقيقـة الأصلية الخالدة التي تمثل أسـاس كل الوجـود. وهذه الحقيقـة لا يصل إليهـا إلا الحكـماء؛ فالحكماء وحدهـم هم الذين يبحثـون عن طبيعة ما هو خالد؛ ومن ثم فهم لا يبحثون عنه بين محسوسات هذا العالم.

والحقيقة الأصلية التي يبحثون عنها هى الأساس المقدس، هى البراهمان. والبراهمـان لا يمكـن أن يترجم ترجمة دقيقة على أنه إله يحمل المفهوم نفسـه الذى تحمله تصـورات الألوهية في الديانات الكبرى: اليهودية، المسـيحية، الإسـلام. فالبراهمـان حقيقة أولى غير محددة وبالغة التجريد. (سيتكشـف أمـام القارئ هـذا المعـنى تدريجيًّا كلـما توغل معنـا في القـراءة). وتذهب الديانة البراهمانيـة إلى أن «البراهمان الخالد موجود في كل مكان، في الأمام،

والوراء، وعلى اليمين، وعلى اليسار، وفى السمت، والنظير. إنه ذاك الذى فيه نسجت السماء، والأرض، والجو، والعقل أيضًا، والحواس كلها» .. «فالزبذ، والأمـواج، وكل المظاهـر، وكل الوجوه، لا تختلف عـن البحر. وما من فرق أيضًا بين العالم والبراهمان» .. «والحقيقة أن كل شيء هو براهمان»[1]، ومع ذلك فهـو «فوق الأزمنة الثلاثة: الماضى، الحاضر، المسـتقبل. وهو يرى كما لـو كان بدون أجزاء. إننا قد عبدنا أولًا ذلـك الإله المعبود، الذى يتخذ عدة صور، والذى هو المصدر الحقيقى لكافة الأشـياء، وهو يعيش في ذهننا. هو فوق كل صور العالم والزمن، هو الآخر، منه هذا العالم يتحرك..»[2].

ولقد تراجعت كثـير من الآلهة الفيدية، وكادت تختفى في الأوبانيشـاد، لكن بعض الآلهة اسـتمرت في الوجود، و إن صارت تعبـيرًا عن حقيقة إلهية واحدة، أو صورًا مختلفة لإله واحد هو براهمان.

ومـن الآلهـة الفيدية التي اسـتمرت في الأوبانيشـاد مع وضعها في سـياق عقائدي جديد، نجد على سبيل المثال الأسماء الآتية:

براجابـاتى[3]، إنـدرا، ياما، آجنى، براهسـباتى. لكنها هـى هى براهمان، تقول أبوانيشـاد ائتاريا: « هو براهمان هو إندرا هو براجاباتى هو كل هذه الآلهيـة ...»، وجاء في أوبانيشـاد برهـا دارانيا كا: «سـئل ياجنيافالكيا: كم

(1) النصوص الثلاثة السالفة اقتبسها فيلسيان شالى، موجز تاريخ الأديان، ص75.

(2) اقتبس هذا النص من أوبانيشاد سفينا سفاتارا: أ. و. ف. توملين، فلاسفة الشرق، ص 184 - 185 .

(3) يُلاحظ أن الآلهة الفيدية فى «البراهمانا» قد أنقصت قيمتها جذريًا لمصلحة براجاباتى. وقد وسع وأكمل كتاب الأوبانيشاد هذه العملية. انظر: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، جـ1، ص 292.

إله يوجـد؟ أجاب: توجد آلهة بقدر ما هو مذكـور في نيفيد[1]، أى ثلاثمائة وثلاث، ثلاثة آلاف وثلاثة.

نعم.. قال هو: كم إله يوجد تمامًا؟

ثلاثة وثلاثون.

نعم.. قال هو: لكن كم إله يوجد تمامًا؟

ستة..

نعم.. قال هو: لكن كم إله يوجد تمامًا؟

واحد ونصف..

نعم.. قال هو: لكن كم إليه يوحد تمامًا؟

واحد..

... ما هو الإله الواحد؟

النَفَس.. قال هو: يسمونه براهمان البعيد».

إذن فالآلهة المتعددة تعود إلى براهمان الواحد.

عقيدة آتمان:

وبجوار هذه الحقيقة، حقيقة البراهمان، توجد حقيقة أخرى هى الآتمان Atman، وإن كنـا سنكتشـف في النهاية أن الاثنين حقيقـة واحدة، وآتمان كلمة سنسـكريتية تعنى الطاقـة الروحية للذات أو النفـس الكلية أو مبدأ

(1) نيفيد هى أنشودة إلى كل الآلهة.

الحياة، وهى ليست مادة ولا صورة، إنها كامنة بداخلنا. هى في نهاية المطاف براهمان، فالاثنان شيء واحد. واشتقاق هذه الكلمة موضع شك، ففى القسم العاشر من «الريج فيد» معناها في الأصل النفس، ثم صار معناها الجوهر الحيوى، ثم صار الروح العليا في الديانة البراهمانية. والآتمان ليس هو المادة، ولا العقل، ولا حتى الذات الفردية، و إنما هو ذلك الوجود الصامت الكامن بداخلنا الذى لا مادة له ولا صورة، إنه الروح اللافردية الكامنة فينا[1]؛ تقول أوبانيشاد كانا: « الواحد الحكيم (آتمان) لا يولد ولا يموت. هو لم يأت من مكان، ولم يصبح أحدًا. غير مولود، دائم، أبدى، أولى، هذا الواحد لا يموت عندما يموت الجسد. إذا فكر القاتل بالقتل، و إذا اعتقد المقتول أنه مقتول، فإن كليهما لا يفهمان. هذا لا يقتل وذاك لا يقتل. أصغر من الصغير، وأكبر من الكبير. هو الروح (آتمان) القائمة في قلب المخلوقات هنا .. هو اللاجسدى بين الأجساد، والمستقر بين اللامستقرين، الروح العظيمة الموجودة في كل شيء».

وهنا يمكن القول إن الآتمان هو المطلق الذاتى، بينما البراهمان هو المطلق الموضوعى. وبعد هذا يدرك الحكيم البراهمانى أن كلا المطلقين غير منفصل عن الآخر؛ حيث يتلاقى آتمان مع براهمان؛ فما هو ذاتى وما هو موضوعى شيء واحد وحقيقة واحدة؛ فالروح اللافردية الكامنة فينا هى ذاتها روح العالم غير المشخص «إن الروح (آتمان) هى العقل. العالم هو العقل. براهمان هو العقل». هكذا قالت أوبانيشاد شاندوجيا التي يعتبر محور عقائدها وحدة الهوية بين آتمان وبراهمان؛ فما يوجد في أعماق الإنسان، و يوجد في الكون،

(1) لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة انظر: ميرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، جـ 1 ص 295 وما بعدها.

هما شيء واحد[1]. وعندما ينظر الإنسان في أعماق وجوده يجد الوجود، وهو الوجود الذى يلقى في أعماق كل النفوس الإنسانية وكل الموجودات النباتية والحيوانية وكل الحقائق.

وثمة جوانب مهمة في هذا السياق عبر عنها الحكيم ياجنيافلكيا في أوبانيشاد برهادا ارانياكا، هى:

الجانب الأول: إن الحب هو رغبة ومطلب الكل، أى البراهمان.

الجانب الثانى: إن القيم الإنسانية مثل الحب والجمال ليست مهمة في ذاتها، بل في كشفها برغم تقلبها، عن مزيد من الحب والجمال الأساسى والأبدى، وتكمن واقعيتها فيما «تسمح له بالدخول» من المصدر الأبدى للقيم الذى هو «البراهمان».

الجانب الثالث: إن الوصول إلى هدف المعرفة لا يكون عن طريق التعليم الأكاديمى الذى لا جدوى من ورائه، بل عن طريق إفراغ العقل من الإدراك بالعالم العالمى. «ليس عن طريق التعليم يكون الوصول إلى الآتمان، ولا عن طريق النبوغ والاستزادة من المعرفة بالكتب.. دع البراهمانى (= هنا رجل الدين من طبقة البراهمة) يقلع عن التعليم ويصبح كطفل»[2].

هكذا تعرفنا حتى الآن على أطروحتين مهمتين من أطروحات البراهمانية، هما البراهمان والآتمان. ويبقى أمامنا حتى تكتمل معالم الصورة العقائدية للبراهمانية أن نشير إلى أطروحتين لا تقلان أهمية عن الأطروحتين السابقتين، وهما: الكارما، والتناسخ (انظر فصل الروح).

(1) قارن: ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 3، ص 47 وما بعدها.
(2) توملين، فلاسفة الشرق، ص 188.

موقف البراهمانية من القرابين وطرق الخلاص:

تقلل البراهمانية في الأوبانيشاد من أهمية الاحتفالات الفيدية والواجبات المذهبية إزاء الخير المطلق المنبثق عن تحقيق الذات.

وتشدد كثيرًا على التمييز بين الطريقة الأنانية الضيقة والجاهلة التي تقود إلى الكفاية المؤقتة، وبين طريقة الحكمة التي تقود إلى الحياة الأبدية.

وعلى الرغم من أنه يوجد في مواضع مختلفة من الأوبانيشاد مقاطع تطالب بتقديم الأضاحى، لكن الميل العام الغالب في الأوبانيشاد ضدها. وبينما تكون القرابين هجرانًا لأنانية الفرد، فإن الصلاة اكتشاف للحقيقة بالدخول إلى ما وراء الذى هو في داخلنا، وذلك بسمو الروح والارتقاء.

ويستلزم هذا الارتقاء استعداد أخلاقيًّا صارمًا، تقول أوبانيشد موندكا: «لا يستطيع أحد أن يصل إلى الروح بدون جلد ونظام»، وعلى الإنسان حتى يرى الروح أن يصبح «هادئًا، مسيطرًا على نفسه، ساكنًا، يتحمل بصبر، وقانعًا».

وليست الغاية من ورواء ذلك هى الوصول إلى حالة سماوية من الغبطة، أو ولادة جديدة في عالم جديد. إن الغاية الحقيقية في البراهمانية لها شقان، أولهما سلبى يستهدف التحرر من الوجود المادى، أى قانون كارما، وثانيهما إيجابى يستهدف الاتحاد في كينونة واحدة مع الكائن الأعلى؛ فالإنسان في نظر البراهمانية يظل في حالة سمسارا، أى عملية التطور، حتى يتخلص من قانون كارما، لكى يصل إلى موكسا أى الخلاص[1].

(1) انظر: سرفبالى رادا كرشنا، وشارلزمور، الفكر الفلسفى الهندى، ص 73 - 74.

الديانة الهندوسية

إن الانتقال من الديانة البراهمانية إلى الديانة الهندوسية يكاد يكون غير محسوس[1]؛ حيث لا يمكن تحديد تاريخ دقيق محدد لذلك. وإن كان من الجائز القول إنها تشكلت بدءًا من القرنين الثانى والأول قبل الميلاد؛ حيث جاءت الديانة الهندوسية كرد فعل لديانتين منشقتين على البراهمانية، وهما: الديانة الجينية، والديانة البوذية؛ حيث وجد الكهنة أن من الضرورى تبسيط المعتقدات وجعلها أكثر حسية وتجسيدًا وإثارة، عبر مجموعة من القصص الأسطورية التي تثير الخيال الدينى عند العامة.

ويُلاحظ أن من الصعب وضع تعريف جامع مانع للديانة الهندوسية، غير أن من الممكن تحديد ملامح عامة لها تجعلها ذات كيان عضوى وتميزها عن غيرها من الديانات الهندية السابقة، فضلًا عن سائر ديانات العالم. والديانة الهندوسية تؤمن بمجموعة من الكتب المقدسة، فبالإضافة إلى أنها تؤمن بالكتب السالفة في الفيدية والبراهمانية أى الفيد والبراهمانا والأوبانيشاد فهى تؤمن أيضًا بالرامايانا، والمهابهاراتا وأهم قسم فيها هو البهاجافاد - جيتا، والبورانا. وهى لا تنكر قدسية الكتب القديمة للفيدية والبراهمانية، تمامًا مثلما لا تنكر المسيحية قدسية التوراة وأسفار بنى إسرائيل. وهى تقدس هذه الكتب رغم أنها لا تُقرأ بين الهندوس إلا قليلًا، وليس لكثير من عقائدها تأثير ملحوظ وحى، فضلًا عن أن تلك الكتب القديمة لا يسير على نهجها إلا قلة محدودة من الهندوس. وأغلب الهندوس يعتبرونها موضع قداسة رغم أنهم يستشعرون

(1) لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: محمد عثمان الخشت (مقارنة الأديان: الفيدية، البرهمية، الهندوسية).

أنهـا بحاجـة إلى إكمال بالكتـب اللاحقة والتى تميز الهندوسـية عن غيرها، وهـى كما أشرنا: الرامايانا، والمهابهاراتـا، والبورانا. يقول طاغور Tagore: «برغم أن الأوبانيشـاد تعتبر أسـمى ما وصل إليه التصور الفلسـفى لشعبنا، فإنهـا لم تكـن شـافية في إجابتها على ما تحـس به النفـس البشرية من حنين معقـد، وكان اهتمامهـا عقلانيًّـا تمامًا، ولم تكشـف بما فيـه الكفاية عن أن الاقتراب من الواقعية يكون من خلال الحب والعبادة»[1].

ورغـم تنوع وتعقد الهندوسـية وما تشـتمل عليه من تناقضـات وتيارات دينية متعارضة، فإنها تتسـم بكونها تؤمن بتناسـخ الأرواح، وقانون الكارما، وتقديس البقر، ونظام الطبقات الصارم وعلى رأسه طبقة البراهمة، والاعتقاد في براهمان الإلـه الأكبر اللامتناهى وغير المحدد والمجـرد تمامًا، والتجليات الإلهيـة الثلاثة له المتمثلة في براهما المذكر الخالق، وفيشـنو الحافظ، وشـيفا المدمـر. ومـن الهندوس مَـنْ يميل إلى فيشـنو، ومنهم مَـنْ يميل إلى شـيفا، أما الأغلبيـة فلا تميـز بين الإلهين، وتعبدهمـا دون تفضيل لأحدهمـا على الآخر. وثمة آلهة أخرى في الديانة الهندوسـية، مثل كالى، وبارفاتى، وساتى، وشاكتى، ولاكشـمى، وجانيش، ودورجا، وفـاك، وراهو، وغيرها مـن الآلهة المتعددة تعـددًا كبيرًا بتعدد القبائـل المختلفة، وإن كان الهندوسى يميـل إلى اعتبارها صـورًا من آلهته الأصلية، وربما يميل الحكماء منهم إلى دمج الآلهة المتعددة في إله واحد، واعتبار ملايين الآلهة الهندوسية جوانب مختلفة من إله واحد. جاء في تقرير عن تعداد سنة 1910 المقدم من لجنة التعداد إلى الحكومة البريطانية إبـان احتلالها للهند: «إن النتيجة العامة التـي انتهت إليها من البحث هى أن

(1) اقتبسه توملين فى: فلاسفة الشرق، ص 191.

كثرة الهنود الغالبة تعتقد عقيدة راسخة في كائن واحد أعلى»[1]. ذلك أن تعدد الآلهة تحـول تدريجيًّا إلى عقدية في وحدة الوجود يشـبهها مـا ذهب إليه ابن عربى الفيلسـوف الصوفى في الإسلام[2]، واسـبينوزا الفيلسوف الأوروبى[3]، وأوشـكت هذه الوحدة عندهم أن تكون توحيدًا، يقول البيرونى عن اعتقاد الهندوس في الله إنهم يؤمنون: « بأنه الواحد الأزلى من غير ابتداء ولا انتهاء، المختـار في فعلـه، القـادر، والحكيم، الحى، المحـى، المدبر، المبقـى، الفرد في ملكوته، المنزه عن الأضاد والأنداد، لا يشبه شيئًا، ولايشبه شيء»[4].. ثم أوشك التوحيد عندهم أن يكون واحدية فلسفية تشبهها واحدية هيجل الفيلسوف الألمـانى من بعض الزوايا و إن كانت تختلف عنها من زوايا أخرى[5]. غير أن ما يجب لفت الانتباه إليه، هو شـيوع عقيدة تجسد الآلهة في الهندوسية، وهى العقيدة التي تقول إن الإله يحل و يتجسد في هيئة أرضية، كأن تكون إنسانية أو حيوانية. مثل تجسدات الإله فيشنو العشرة.

(1) Havell, Ancient and Medieval Architecture, P. XXXL.

(2) انظر خلاصة مذهبه عند: د. ماجد فخرى، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة د. كمال اليازجى، بيروت، الجامعة الأمريكية، 1974، ص 242.

(3) انظر خلاصة مذهبه فى وحدة الوجود عند: د. فؤاد زكريا، اسبينوزا، بيروت، دار التنوير، 1983، ص 102 - 172، وتوجد مقارنة بينه وبين هيجل وابن عربى من زاوية نظرية كل منهم عن الله والوجود، فى كتابنا: الأديان - تأويل نقدى لفلسفة الدين عند هيجل، القاهرة، دار غريب، 1995، الفصل الثانى.

(4) البيرونى، تحقيق ما للهند من مقولة، الجزء المحقق المنشور فى كتاب د. عبدالحليم محمود: الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلام، ص 30.

(5) انظر كتابنا: المعقول واللامعقول في الأديان، ص 239 وما بعدها؛ حيث توجد فيه مقارنات عديدة بين واحدية هيجل وغيره من الفلاسفة القدامى والمحدثين القائلين بوحدة الوجود.

وحتى لا تكون العقيدة الهندوسية مستغربة من هذا الجانب، فإنه يمكن المقارنة بينها وبين العقيدة المسيحية مقارنة تقريبية؛ «فكما يتوجه المسيحي الورع بالدعاء إلى العذراء، أو إلى قديس من آلاف القديسين، ومع ذلك لا يتحول عن توحيده لله، بمعنى أنه لا يعترف إلا بإله واحد على أنه ذو الجلال الأسمى، فكذلك الهندي يتوجه بالدعاء إلى «كالي» أو «راما» أو «كرشنا» أو «جانيش» دون أن يتطرق إلى ذهنه لحظة واحدة أن هذه آلهة لها السيادة العليا، فترى بعض الهنود يتخذ من «فيشنو» إلهًا أعلى، وبعضهم يتخذ من «شيفا» إلهًا أعلى يجعل فيشنو أحد ملائكته، وإذا وجدت بين الهنود أقلية تعبد «براهمان» فما ذلك إلا لأنه مجرد عن التشخيص، ممتنع على الحواس، بعيد عن الشر، ولهذا السبب عينه ترى معظم الكنائس في البلاد المسيحية قد أقيمت تكريمًا لمارية أو لأحد القديسين، وكان على المسيحية أن تنتظر حتى يجيئها فولتير فيقيم معبدًا لله»[1]، مع العلم أن فولتير لا يؤمن إلا بالله ولا يؤمن بعقائد المسيحية عن الأب والابن والروح القدس ولا بأسرار الكنيسة السبعة، وإيمان فولتير بالألوهية قريب من التأليهية بنقده للإلحاد ونفيه لإمكانية الوحي[2].

ولقد أخذت الهندوسية كثيرًا من عقائد البراهمانية، مثل وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، والكارما، وغيرها، لكنه خففت ما فيها من تشاؤم وأضفت عليها البساطة والشعبية، وأدخلت كثيرًا من الخرافة عليها. ونظرًا لأن وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، والكارما، قد سبق الحديث عنها، فإنها تكون مفهومة تمامًا الآن عند القارئ؛ أما ما أدخلته الهندوسية عليها من

(1) دول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 3 ص 209.

(2) لمزيد من التفاصيل حول موقف فولتير من الدين، انظر: جاكلين لا غريه، الدين الطبيعي، ترجمة منصور القاضي، بيروت، المؤسسة الجامعية، 1993، ص 71 وما بعدها.

تغيير، فيجده القارئ في الكتب المقدسة الهندوسية، وهى المهابهاراتا وأهم جزء فيها هو البهاجافادجيتا، والرامايانا. كما سيجده في القسم الخاص بآلهة الهندوسية في كتابنا (عن الفيدية والبراهمانية والهندوسية).

إن البراهما هو الأساس ومنه ينبع العالم كله، ومع ذلك فإنه يبقى في الألوهية، في الوحدة مع الألوهية. إن كل الأشياء نابعة منه، وخارجة عنه، من أرفع مراتب الوجود إلى أدناها؛ فقد نبعت منه الكائنات العليا والمتوسطة والدنيا: الكائنات العليا مثل الآلهة والأبطال والقوى الكلية، والكائنات المتوسطة بين مراتب الوجود مثل الإنسان، والكائنات الدنيا مثل الحيوانات والنباتات والظواهر الطبيعة غير العضوية.

وتتصور الهندوسية البراهمان المطلق على أنه المجرد واللامتمايز واللامتعين تمامًا، أي لا يمكن تحديده ولا تمييزه ولا وصفه أو تعيينه. ويفتقر هذا الغلو في التجريد إلى مضمون خاص، ولا تقابله أية شخصية عينية، ومن ثم لا يصلح لأن يصاغ ويقولب من قبل الإدراك؛ فالبراهما ذلك الإله الأسمى المحايد يفلت من الإدراك الحسي، ولا يمكن التفكير فيه[1].

ويخرج عن البراهما المبدأ الأول والمحايد والمجرد ثلاثة تجليات أساسية، هى التريمورتى، أى الثالوث الإلهي، أولها البراهما (المذكر)، ثم الفيشنو وبالأخص في صورة كريشنا، ثم شيفا أو مَهَديفا.

أما الضلع الأول من الثالوث، وهو براهما (المذكر)، فإنه صاحب النشاط المنتج والمنجب، فاطر العالم، كبير الآلهة، إلخ. وهو يتميز عن البراهما

(1) Hegel, Lectures on the History of Philosophy, New York, Dover Publications, 1956. pp. 138 ff.
- Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 270 ff.

(المحايـد) الكائن الأعلى، أما هو أى براهما المذكر- فهو أول مواليده، لكنه من جهة أخرى يتداخل من جديد مع هذه الألوهية المجردة[1].

و إله تريمورتى الثانى هو فشنو أو كريشنا، الذى يحفظ و يصون، والذى يتجسد في أشكال كثيرة لا حصر لها[2].

والثالث، هو شيفا الإله الذى يدمر[3].

والتجليات المقابلة لهـذه الآلهة الثلاثة لا تقع تحت حصر، و إذا نظر إلى عمومية مدلولاتها فإن نشـاطاتها لا متناهية العدد، وبعضها يتعلق بالظواهر الطبيعية، وعلى الأخص العنصرية، وعلى سـبيل المثال فإن فشنو يختص بكل ما له صلة بالنار. أما البعض الآخر فعبارة عن أنشـطة روحية، علمًا بأن كلا النوعين من الأنشطة يتداخل و يتراكب بصورة بالغة التنوع.

وثمـة تشـابه رقمي بـين الثالوث الهنـدوسي القديـم والثالوث المسـيحي الأحدث[4]؛ وليس من الجائز اعتمادًا على التشابه الرقمى اعتبار هذا التثليث الأصل الأول الذى صدر عنه التثليث المسيحى. فالأقانيم الثلاثة في المسيحية الحاليـة الآب، الابن، الروح القدس، ليسـت آلهة ثلاثـة منفصل كل واحد منها عن الآخر بل هى إله واحد[5].

(1) Ibid., p. 275.

(2) Ibid., p. 277-9.

(3) Ibid., p. 279-80.

(4) Hegel, Lectures on the History of Philosophy, 1, pp. 139.

(5) يقول قانون الإيمان المسيحى: «نؤمن بإله واحد الآب والابن والروح القدس إله واحد جوهر متساوين فى القدرة والمجد». ويقول علماء اللاهوت المسيحى إن التثليث لا يعنى ثلاثة آلهة بل إن هذه الشخصيات الثلاث جوهر واحد؛ ففى طبيعة=

إن هـدف الهندوسي الأقصى هو تحقيـق النجاح في التوحـد مع البراهما الواحد، الصعود إلى الوجود الحق باعتباره فكرًا. وينال البراهمة مباشرة هذا الوجود كفكر باعتبارهم أسـمى طبقة، وهم يكتسبون ميزة الاتصال بما هو إلهي بفضل مولدهم الإلهي كبراهمة أي كآلهة[1].

وتوجد طريقة أخرى يسـلكها أهل الطبقات الأخـرى الأدنى من طبقة البراهمـة، لـكي يصلوا إلى درجـة التوحد مـع الواحد، ويسـتردوا حقيقتهم الأصلية، تتمثل هذه الطريقة في إماتة الشـهوات والرغبات والذات الحسية والتخلـص من مظاهر الحياة الخارجية بل ومن كل نشـاط حيوي. وبعضهم ينتهج وسائل غريبة مثل أن يقف لمدة عشرة أعوام، ثم يجلس مدة مساوية! ويقـوم أصدقـاؤه بتقديـم الحـد الأدنى مـن الطعـام والشراب لـه. ويعتقد الهنـدوسى أنـه بهذا يرتقـي بروحه إلى التوحـد مع البراهما باعتبـاره الفكر الخالـص الذي لا يفكر معه في أي شيء. ويعتـبر الفكر الخالص هو الهدف الأعلى للهندوسى. وإذا لم يفعل هذا واتبع سـبيل الشـهوات والرغبات ولم يخـرج من كل ما هو حسي بشـكل عـام، فإنه لا يصل إلى تلـك الدرجة من التوحـد مع البراهما، ولا يتحرر من سلسـلة الوجـود، ويدخل بعد الموت في جسـد جديد، جسد حيواني، وفق عقيدة التناسخ. فالأسلوب الذى يلجأ إليه الهنـدوسى للقضاء على الهوة القائمة بين المتناهي واللامتناهى، هى الجهاد من أجـل التماهي مع هذا الجوهر، وغاية الهندوسى هى الصعود بلا توقف نحو

= الإله الواحد تظهر ثلاثة خواص أزلية، يعلنا الكتاب المقدس فى صورة شخصيات (أقانيم) متساوية. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 232.

(1) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 428-9.

- Hegel, Lectures on the History of Philosophy ,1, pp. 139

ذلك التجريد الأقصى، وقبل أن يفلح الإنسان في بلوغ درجته القصوى يكون كل شيء قد تبخر وتلاشى: المضمون العيني ووعيه بذاته على حد سواء. لهذا لا يعرف الهندوسى من تصالح أو تماهٍ مع البراهما، بمعنى أن الروح الإنساني لا يعي هذه الوحدة، وإنما تتحقق الوحدة بالنسبة إليه متى زال كل شيء: وعيه ومضمون العالم ومضمون شخصيته على حد سواء. ويعتبر هذا الفناء- الذي يصل إلى حد غيبوبة الوعي التامة- أسمى حالات الغبطة التي بفضلها يغدو الإنسان قادرًا على الوصول إلى الله الأسمى وعلى صيرورته هو نفسه برهمانا[1].

الأسس الدينية لنظام الطبقات:

يعد نظام الطبقات المغلق الصارم سمة مشتركة بين الديانات الثلاث: الفيدية، والبراهمانية، والهندوسية.

ولذا سنتحدث عنه ابتداء من الديانة الفيدية؛ لأنها هى التي تقدم الأساس العقائدى لهذا النظام، فضلًا عن أنه قد شهد بدايته معها، وبطبيعة الحال سنحاول أن نتتبع ما طرأ عليه من متغيرات في الفترات التاريخية اللاحقة ولا سيما في فترة الهندوسية المعاصرة.

ولا يعتبر نظام الطبقات في أى الديانات الثلاث مجرد نظام اجتماعى فقط، بل هو نظام دينى في الأساس، «ونشأ هذا النظام في الهند بنشأة الهند ذاتها منذ قرون عديدة، وارتبط بصفة خاصة بالغزاة الآريين، واكتسب خصائصه المميزة وجهوده عبر القرون حتى أصبح الصفة الرئيسية في

(1) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 383ff.
- Lectures on the History of Philosophy,1, p. 140.

المجتمع الهندى.. وعلى مر القرون وهب النظام الطبقى الاستقرار للمجتمع الهندوسى»[1].

ويستخدم الهنود اصطلاح فارنا Varna للدلالة على الطبقة المغلقة. وهو يعنى حرفيًّا في السنسكريتية «اللون»، ثم أصبح يدل على «الطبقة المغلقة» في النظام الاجتماعى الهندوسى المغلق، ويشتمل هذا النظام على أربع طبقات مغلقة هى: البراهمة وهم الكهنة الذين خرجوا من رأس الإله، والكشاترية وهم المحاربون الذين خرجوا من ذراعيه، والفيزا وهم التجار والزراع والصناع الذين خرجوا من فخذيه، والشودرا وهم العبيد الذين خرجوا من قدميه.

وفى أدنى درجات السلم الدينى الاجتماعى يوجد المنبوذون، وهم لا ينتمون لأى طبقة، وإن وجدت بين هذه الطائفة الكبيرة درجات وتنوعات، وأصبح المنبوذون في الهند أكبر جماعة عنصرية مغلوبة على أمرها في العالم؛ إذ تعرضوا لجميع أنواع التمييز والتفرقة، وحرم عليهم التعامل مع غيرهم من الهنود المنتمين إلى مختلف الطبقات إلا في أضيق الحدود، وما زال يوجد بالهند ما يقرب من ستين مليونًا من المنبوذين، يعيش معظمهم في مناطق معزولة خاصة بهم، ويشتغلون بالأعمال الوضيعة. وفى قرى الهند، معقل التقاليد الهندية، لا تزال توجد بعض الشعوذات القديمة، إلا أن النبذ قد أصبح رسميًّا عملًا غير مشروع، ويتمتع المنبوذون بفرص أكبر من أى فرص تمتعوا بها في الماضى، والتصنيف الرسمى للمنبوذين هو «طبقات مدرجة على الجدول». أما غاندى فقد أشار إليهم بأبناء الله Harjans. ويحتل عدد منهم مناصب في

(1) Sir percival grifiths, Modern India, New Uork, 1957, P. 31 .

الحكومة والمهن المختلفة. ويُمنحون فرصًا خاصة في التعليم، ومع ذلك كله فما زالوا منبوذين.

وبالرغم من أن النظام الطبقى يتغير بسرعة، فما زال نفوذه قويًا، إذ يحدد النظام الطبقى طرق معيشة غالبية الهندوس؛ ويحدد كيف يعيشون، وماذا يأكلون، ومن يتزوجون، وفى أى المهن يعملون، وبأى الالتزامات الاجتماعية يرتبطون.

وبالرغم من معارضة غاندى الشديدة للنبذ، فإنه قد وجد بعض النواحى الاجتماعية القيمة في النظام الطبقى، على عكس الكثيرين من زعماء الهند الحديثة الذين يعتقدون أن هذا النظام لا مكان له في العالم المعاصر[1]. ومن هؤلاء نهرو نفسه الذى ينتمى إلى طبقة البراهمة الراقية ويرجع إلى أصل كشميرى؛ فيقول: «لم يعد لهذا النظام مكان في التنظيم الاجتماعى الحديث»، وإن «الفكرة الأرستقراطية التي تستند إلى أساس من التقاليد، والتى قام عليها النظام الطبقى يجب أن تتغير كلية؛ لأنها تتعارض إجمالًا والظروف الحديثة والمثل الديمقراطى»[2].

البقرة المقدسة.. مقارنة بين الهندوسية والأديان الأخرى:

رغم كل ما يميز الديانة الهندوسية مع سمات دينية، فإن عقيدة تقديس البقرة تظل هى أكثر العقائد ذكرًا في العالم كله عندما تأتى سيرة الهندوسية في أى حوار بين أى اثنين بصرف النظر عن درجة تعليمهما وثقافتهما. بل

(1) نورمان د. بالمر، النظام السياسى فى الهند، ترجمة د. محمد فتح الله الخطيب، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1965، ص 32 - 33 .

(2) Nehru, Discovery of India, P. 532.

لا يكاد يعرف الكثيرون مثقفون وأميون عن الهندوسية سوى أنها تقدس البقرة.

وجدير بالتنويه أن البقرة ليست مقدسة فقط في الهندوسية، بل إنها مقدسة كذلك في ديانة الإلهة حتحور في مصر الفرعونية القديمة حيث صورت حتحور في صورة بقرة[1]، ولها قداسة كذلك في ديانة إيزيس. وعبادة الثور المسماة عبادة أبيس في مصر الفرعونية عمرها على الأقل يرجع إلى بداية عهد الأسرات، واستمرت عبادة الثور في ممفيس حتى انتهاء عصر البطالسة عندما تم ربطها بشكل أو بآخر بعبادة أوزوريس إله محاكمة الموتى، والذى سمى في كتاب الموتى «ثورامينتيت Amentet» أى ثور العالم السفلى. وفى العصر البطليموسى تم دمج كل من الإلهين وكونا الإله سرابيس Sarapis.

وقد بَجَّل قدماء المصريين البقرة، لأنها معطية اللبن؛ ولأنها الأم السماوية للشمس. «البقرة الصغيرة ذات الفم الطاهر»، زوجة الشمس الذى كان «ثور أمه»، وأطلقوا على البقرة اسم «حتحور»، أو «هذه البقرة التي هى السماء حارسة عالم الموت، ومعطية فرعون اللبن»؛ وكثيرًا ما كانوا يبنون لها المعابد، ويكرسون لها قطعان كاملة من أخواتها. وكذلك للآلهة التي تتخذ صورة الثور (مثل منتو، ومين، وأمون). وللثيران التي تتجسد فيها الآلهة (أبيس، ومنيفيس هليوبوليس، وبوخيس هيرمونتيس «أرمنت») أبقارها أيضًا، تلك التي تتمثل فيها قوتها كأسلاف للكون. وهذا يوضح

(1) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، ترجمة أمين سلامة، مراجعة د. سيد توفيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص 96.

مقدار أهمية الثور في الأساطير وفى الطقوس الدينية، بالإضافة إلى أهميته في حياة المصريين[1].

وقد تم تصوير السماء في مصر الفرعونية على هيئة بقرة يمسكها إله الهواء «شو» وآلهة أخرى، وعلى بطنها النجوم وسفينة الشمس. كما مثلوا السماء على هيئة امرأة قد انحنت فوق الأرض، وأعطوها رأس بقرة، أو على الأقل يزينون رأسها الآدمى بقرون بقرة[2].

وللبقرة دور في بعض الديانات السماوية، لكنها لا تكتسب أى صفة مقدسة؛ حيث حرّم على اليهود حسب الشريعة الموسوية أن يذبحوا بقرة وعجلها في يوم واحد، وأما القصد من ذلك فيقول علماء اللاهوت إنه غير معروف؛ وظنَّ بعضهم أن سبب التحريم إنما كان لأنها عادة وثنية أو لمجرد الشفقة[3]. وقد ورد في سفر العدد (الإصحاح 19) الأمر بذبح بقرة وحرقها وفق طقوس ذكرها السفر بالتفصيل، من أجل استخدام رمادها في ماء التطهير[4].

وقد قص القرآن الكريم في سورة البقرة قصة بقرة بنى إسرائيل (الآيات 67 وما بعدها). كما ذكر القرآن الكريم في عدة مواضع من سورة قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل عندما أضلهم السامرى. أما موقف الإسلام من

(1) المرجع السابق، ص 226.

(2) أدولف إرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة د. عبد أبو بكر ود. محمد أنور شكرى، القاهرة مكتبة مدبولى، 1995، ص 31.

(3) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص 185.

(4) راجع القصة بالتفصيل فى الكتاب المقدس، الطبعة المسماة كتاب الحياة - ترجمة تفسيرية، ص 200 - 201.

البقرة، فهى لا تعدو أن تكون حيوانًا من بين الحيوانات التي يجوز للإنسان ذبحها وأكل لحومها، وليس لها أية صفة مميزة عن غيرها من الحيوانات.

نعود لمكانة البقرة في الديانة الهندوسية بعد هذا الشوط السريع من المقارنة مع موقف الديانات الأخرى من البقرة.. فنقول إن البقرة اكتسبت قداستها في الهند منذ عصر الفيدا؛ حيث جاء في الساما فيدا أنشودة موجهة للبقرة توضح قداستها و إجلالها. وقد ظلت البقرة مقدسة في الديانة الهندوسية حتى أصبحت هى المحور الجامع بين كل طوائف الهندوسية المختلفة. و يعتقد الهندوس أن كل جزء من جسمها يسكنه إله من الآلهة، وكل إفرازاتها طاهرة؛ حتى إن بولها يجب الاحتفاظ به باعتباره أطهر المياه المقدسة التي تزيل ذنوب من يمسح بها جسده، وروث البقر كذلك يستخدم في التطهر من الذنوب، وأى بقعة يصيبها شرف إفرازات البقرة تظل إلى الأبد أرضًا طاهرة. وأما الرماد المتخلف عن حرق الروث بعد تجفيفه فهو كافٍ لغفران ذنوب المخطئين. ومن الطرق التي يستخدمونها في إزالة الخطايا والتكفير من ذنوب الحياة السابقة أكل خليط مكون من إفرازات البقرة الخمسة: اللبن، والقشطة، والزبد، والروث، والبول.

وفى بعض القرى الهندوسية يقوم المحتضر قبل موته بمسك ذيل بقرة، اعتقادًا منه أن ذلك سيعينه على الانتقال بسهولة من هذه الحياة إلى حياته المقبلة.

ونظرًا لهذه القداسة التي تتمتع بها البقرة في الهندوسية، فإن الجزاء الشديد ينتظر كل من يذبحها أو يأكل لحمها؛ حيث إنه سيقضى في الجحيم سنوات بقدر عدد الشعرات التي في جسم البقرة. والفلاح الذى يهمل بقرته حتى

تموت فعليـة تكفيرًا عن ذنبه الكبير أن يقضى مدة من الزمن بعيدًا عن منزله يتسـول أثناءها طعامه اليومى محدثًا بفمه خوارًا يشـبه خوار البقرة دون أن ينطق بكلمة واحدة[1]!

ولا تـزال البقـرة لها قداسـتها في الهندوسـية المعاصرة، وقـد حاول كبار مفكريها أن يفلسفوا تلك القداسة، ومنهم على سبيل المثال غاندى الذى قال: « إن حمايـة البقرة في نظرى من أعجب المظاهر في التطور الإنسـانى، وذلك لأنها تحمل الإنسـان إلى ما هو أبعد مـن نوعه، والبقرة تمثل في نظرى عالم ما دون الإنسـان كله، وعن طريق البقرة يجعل الإنسـان نفسـه واحدًا مع كل حيوانـات الأرض.. فهـى أم ملايين من الجنس البـشرى الهندى - هى عنوان الإشفاق والرفق، وحمايتها تعنى حماية الخلائق البكماء كلها»[2].

ومـن مظاهر التقديـس المعاصرة للبقرة في الهند أن السـيارات تقف مدة كبيرة في الشوارع إذا ما اضطجعت بقرة في عرض الطريق، ولا يجرؤ السائق على استعمال زمارته أو المناداة عليها لتتحرك إلا بكل رفق وحنان.

و إذا ماتـت البقرة وجب دفنها بجلال الطقوس الدينية. والسـؤال الآن: لماذا يعبد البشر أحيانًا حيوانًا ما من الحيوانات؟

يبـدو اليوم هناك اتفاق عام بين علماء أصول السـلالات البشرية على أن هناك ثلاثة أسباب رئيسـية دعت البشر لعبادة الحيوانات، فإما أنهم عبدوها

(1) لمزيد من التفاصيل والمشاهدات الحديثة عن تقديس البقرة فى الهند، انظر: أحمد عبدالمنصف محمود، فى بلاد البقرة المقدسة، القاهرة، دار الكاتب العربى، بدون تاريخ، ص 90 - 92.

(2) حبيب سعيد، أديان العالم، ص 82.

كحيوانات نافعة وضرورية لحياتهم ضرورة قصوى، وإما لأنها سكن للآلهة، أو لأنها ممثلة لأسلاف العشيرة أو كطوطم[1].

لكن بجوار هذه الأسباب، ربما يوجد سبب سياسى، لا سيما في حالة الهند، إذ ليس من المستبعد أن يكون الساسة القدماء هم الذين أضفوا فيما مضى هذه القداسة على البقرة وتحريم ذبحها احتفاظًا للزراعة بحيوان الجر حتى يسد حاجة السكان الذين يتكاثرون، خصوصًا وأن البقرة بما تفرزه من خيرات تمثل مصدر نفع لا غنى عنه لحياة السكان.

العبادات والطقوس في الهندوسية:

أ- المعابد:

يبنى الهندوس معابدهم على نحو يشبه البناء الكونى في اعتقادهم. ويتم تشكيل قبة المعبد تشكيلًا بيضاويًّا بحيث تصور القبة الجبل الذى تحيا فيه الآلهة في السماء، ويسمى جبل «مرو». وفى الغالب ينحت الهندوس على هذه القبة صورًا بارزة تصور الآلهة، ومن أكثر القباب لفتًا للأنظار، تلك القبة التي توجد بمعبد «خاجوراه»؛ حيث بها نحت يمثل الآلهة وهى في حالة حب جسدى مع زوجاتها.

وأسفل القبة يوجد المذبح الذى يتصل بممر ذى سقف منخفض في آخره غرفة صغيرة يوجد بها تمثالان أحدهما للإله والآخر لزوجته. ودخول هذه الغرفة مشروط بالاغتسال من أجل التطهر التام؛ فلا يدخلها إلا من تطهر،

(1) قارن: والاس بدج، آلهة المصريين، وترجمة محمد حسين يونس، القاهرة، مكتبة مدبولى، 1994، ص 49.

ومحـرم على غير الهندوسـيين دخولها، مثلـما يُحرم على غير المسـلمين دخول المسجد الحرام بمكة.

و يوجـد حول الحجرة المقدسـة، حجرة الإله وزوجتـه، حجرات لباقى تماثيل الآلهة الثانو ية. أما فناء المعبد فيوجد به مغتسل كبير على هيئة حوض له سليم يتم النزول عليه للاغتسال.

وكثير من المعابد الهندوسية يقصدها الحجاج من كافة أنحاء الهند. ودور المعابد في الديانة الهندوسـية أساسًا يتمثل في الاحتفال بالأعياد الدينية وأداء الطقوس اليومية للآلهية. أما الصلوات الفردية فإنها تؤدى غالبًا في المنازل.

ب- طقوس التطهير:

تأخـذ طقوس التطهير مكانة مهمة في الهندوسـية، مثل معظم الديانات، وربما تزيد عليها تعقيدًا وغرابة ولا معقولية في كثير من الأحيان.

وتتفاوت الحالات التي تجعل الإنسـان نجسـا لا بد له مـن التطهير، فثمة حالات تسـتلزم طقوسًـا معقدة وصعبة، وثمة حالات أخرى تسـتلزم طقوسًا أقل وأسـهل، وتتدرج الحالات الأخـيرة فيما بينها تبعًا لحجم النجاسـة. ومن الحـالات القصوى في النجاسـة خـرق قانـون الطبقات، والتطهـير من هذه النجاسـة يقتضى شرب خليط من إفرازات البقرة يتكون من: اللبن، والزبد، والسمن، والروث، والبول ! ثم ينفى من الهند.

ومن حالات النجاسـة الأقل صعوبة، تلك الحالات التي تنتج عن: حيض المرأة، ونفاسـها، وملامسـة المرأة أثناء تلك الفترتين ومس جثة، أو منبوذ، أو فرد من طبقة الشـودرا، أو قذارة، وأكل الأطعمة المحرمة. وتتراوح شروط

التطهير من هذه النجاسات فيما بينها. غير أن أكثر أنواع الطهارة يسرًا هو رش النجس بالمياه المقدسة التي توجد في الأحواض والأنهار المقدسة، مثل مياه أحواض المعابد، أو مياه نهر الجانج.

ويقول الأب دبوا (1820م) إن بول البقرة «في نظرهم أفعل وسائل التطهير من أى ضرب من ضروب النجاسة؛ فكثيرًا ما شاهدت هنودًا ممن يؤمنون بالخرافة، وهم يتبعون البقرة إلى مرعاة، ينتظرون اللحظة التي يستطيعون فيها الحصول على هذا السائل الثمين في أوعية من نحاس أصفر، ويسرعون به إلى دورهم وهو لا يزال دافئًا، وكذلك شاهدتهم يرقبون أخذه في حفنات أيديهم، فيشربون بعضه ثم يمسحون وجوههم ورءوسهم ببقيته»[1].

جـ- الصوم:

الصوم في الهندوسية إما تطوع، أو فريضة. أما التطوع فقد أورد البيرونى كثيرًا من أصنافه، منها:

- **صيام أوب باس:** وهو الصيام الذى يعين فيه الشخص اليوم الذى يصومه، وينوى في داخله اسم مَنْ يصوم له سواء كان إلهًا أو ملاكًا أو غير ذلك. ثم يجعل طعامه في اليوم الذى قبل يوم الصيام عند الظهيرة، وينظف أسنانه بالتخليل والسواك، وينوى صوم الغد، ثم يمتنع عن الطعام. فإذا أصبح يوم الصوم استاك ثانية، واغتسل وأقام فرائض يومه، وأخذ بيده ماء ورمى به على جبهته، وأظهر اسم من

(1) Abbe J. A. Dubois Hindu Manners, customs and ceremonies, P. 43 .
اقتبسه ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 3 ن ص 226 .

يصوم له بلسانه. ثم يبقى على حالة إلى غد يوم الصوم، فإذا طلعت الشمس فهو بالخيار في الإفطار، إن شاءه في ذلك الوقت، و إن شاء أخره إلى الظهيرة.

- **صيام كرجر:** وهو أن يأكل في وقت الظهيرة، وفى اليوم الثانى وقت العتمة، ولا يأكل في اليوم الثالث إلا ما يُدفع إليه غير مطلوب، ثم يصوم اليوم الرابع.
- **صيام براك:** وهو أن يجعل الإنسان طعامه وقت الظهيرة ثلاثة أيام متوالية، ثم يحوله إلى وقت العتمة ثلاثة أيام متوالية، ثم يصوم ثلاثة أيام متتالية لا يفطر فيها ألبتة.
- **صيام جندرايـن:** وهو أن يصوم يوم الاستقبال (وهو يوم مرتبط بميقات فلكى)، و يتناول في اليوم الذى يتلوه من الطعام قدر مضغة ملء الفم، ثم ضعفها في اليوم الذى بعده، ويجعلها في اليوم الثالث ثلاثة أضعافها، إلى أن يبلغ يوم الاجتماع (يوم مرتبط بميقات فلكى) على هذا التزايد فيصومه، ثم يتراجع من المقدار الذى بلغه طعامه بنقصان مضغة إلى أن يفنى عند استقبال بلوغ الاستقبال.
- **صيام ماسواس:** وهو الصيام أيام شهر متوالية لا يفطر فيها أبدًا.

وأورد البيرونى الأيام التي يستحب فيها الصوم، وهى مرتبطة بمواقيت فلكية، وخصوصًا بمنازل القمر، فمن ذلك اليوم الثامن والحادى عشر من النصف الأبيض من كل شهر ويوم الاستقبال من شرابن (اسم شهر عندهم)... وفى أشوجج (اسم شهر) إذا كان القمر في السرطان والشمس في السنبلة.. واليوم الثامن من هذا الشهر وفطره مع طلوع القمر... واليوم

الخامس من بهادرو (اسم شهر) ويصام هذا اليوم باسم الشمس. وفى السادس من بوش (اسم شهر) صوم للنساء دون الرجال .. يكون تمام يوم بليلته»[1].

وأشار البيرونى إلى بعض الطقوس التي ترتبط ببعض أنواع الصيام، حيث «يجتنب الصائم اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء، ويجعل أكله مرة كلا يوم، ويجعل الأرض وطاءه من غير فرش ولا ارتفاع عنها بسرير». وفى بعض أنواع الصيام: «يتلوث الصائم بأخثاء (= روث) البقر ويفطر بلبنها وبولها وأخثائها (= روث)...»[2].

هذا عن صوم التطوع. أما صوم الفريضة، فقسمان:

القسم الأول: صوم الطبقات الدنيا:

وهو صيام أوائل فصول الخريف والربيع والشتاء والصيف، وصيام اليومين الأول والرابع عشر من كل شهر قمرى، أى عند ظهور الهلال، واكتمال القمر بدرًا. كما يجب الصيام أثناء كسوف الشمس بالامتناع عن الأكل والشرب والعلاقات الجنسية.

القسم الثانى: صوم الطبقات العليا:

وهو الصوم المفروض على البراهمة والكشاترية؛ حيث يحرم عليهم الانتفاع بشيء من الأطعمة كان في منازلهم عند الكسوف؛ ويجب عليهم التصدق بها على الطبقات الدنيا بعد تحطيم الآنية التي كانت فيها الأطعمة.

وتفرض قوانين مانو الصيام على طائفة السيناتا Sinata وهم صفوة

(1) البيرونى، تحقيق ما للهند من مقولة، ص 133 - 135.
(2) المرجع السابق، ص 134 - 135.

البراهمة؛ حيث يجب عليهم الامتناع عن الأكل والشرب والنوم والسفر كل يوم من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر[1].

د- الحج:

يعتبر الحج من الطقوس الهندوسية، وهو كظاهرة دينية مشتركة بين كل الأديان؛ يعكس الإيمان بتقديس الإنسان لبعض الأماكن المرتبطة عنده إما بذكرى حدث مهم، أو بحلول الآلهة فيها.

والأماكن المقدسة في الهندوسية إما فوق الجبال أو في السهول؛ حيث توجد صخور نسجت حولها الأساطير والخرافات. كما يقدس الهندوس بعض الأنهار؛ حيث توجد مواضع معينة وهياكل على طول مجارى تلك الأنهار المقدسة، يقف عندها الهندوس خاشعين متعبدين. ومن أكثر الأنهار قداسة نهر الجانج؛ حيث يعتقدون أنه ينبع من أقدام الإله فيشنو في السماء ثم يسقط على رأس الإله شيفا، ثم يخرج على الأرض من شعر رأسه. ولمياهه قدسية مباركة وقوة سحرية للتطهير بسبب حلول الآلهة فيها. والاغتسال والتطهر فيه يمحى جميع الذنوب. كما أن من طقوس العبادة رمى الزهور في مياهه. ويأخذ الحجاج من مياهه ما يستطيعون حمله عند عودتهم إلى بلادهم. والموت في هذا النهر يضمن الانتقال فورًا إلى السماوات.

ولهذا السبب فإن هؤلاء الذين يعيشون بالقرب منه، عندما يحتضرون ويقتربون من الموت، يُنقلون إلى ضفاف النهر؛ حيث تُوضع أقدامهم فيه أو تغمر أجسادهم حتى الخصر في مياهه، إلى أن يموتوا وهم في مياهه الطاهرة[2].

(1) انظر: د. على عبدالواحد وافى، الأسفار المقدسة، ص 190.

(2) انظر: أحمد عبدالمنصف محمود، فى بلاد البقرة المقدسة، ص 94.

وتعتبر مدينة بنارس من أهم البقاع المقدسة على نهر الجانج التي يقصدها الحجاج. وعندما يرون قباب الهيجل من بعيد ينبطحون على الأرض، ويهيلون تراب الأرض على رؤوسهم كرمز للاستسلام الروحى. ثم يتقدمون فرحين للاستحمام في النهر. ويعتقدون أن هذا الحج يغفر كل ذنوبهم، وإذا ما مات أحدهم في هذا المكان المقدس بعد التطهير؛ فإنه ينتقل إلى فردوس الإله شيفا؛ حيث يحيا في سعادة[1].

وجدير بالذكر أن مدينة بنارس لها قدسيتها منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، ولا يقصدها الهندوس فقط، بل يقصدها كذلك البوذيون.

ويبلغ عدد الذين يحجون إليها سنويًا حوالى مليونى حاج.

هـ- الصلاة:

الصلاة في الهندوسية تكون إلى صنم الإله، ويتم فيها تقديم الأطعمة والمشروبات له وفق طقوس معينة. وهذه الصلاة غالبًا ما تكون في المنزل. ومن قبيل الصلاة في المنزل أن تقوم الأسرة في الفجر وتنشد أناشيد مصحوبة بصوت الموسيقى ودقات الأجراس لتوقظ الإله من نومه، ثم يفعلون الفعل نفسه في المساء من أجل أن ينام.

وفى بعض الصلوات تقوم المرأة بارتداء سارى أبيض وطرحة بيضاء وتقدم في الصباح الباكر بعض أصناف الطعام لتمثال الإله، وتقف أمامه في حالة خشوع وقد ضمت كفيها أمام صدرها.

وتؤدى الصلاة على هذا النحو أو ذاك؛ اعتقادًا من العامة بأن الآلهة تحل

(1) انظر حبيب سعيد، أديان العالم، ص 82.

بذاتها في صورها وتماثيلها، وأنها تأكل وتشرب وتنام كأى بشر، ولها القدرة على المنح والمنع. وتُعامل التماثيل كأنها ذات وعى، كما يعتقد العامة أنها تبتسم وترفع يدها لتبارك رعاياها وتصدر أوامرها غير المرئية إلى من حولها.

أما طقوس الصلاة في المعابد فيؤديها الكهنة يوميًا؛ حيث يقوم الكهنة قبل طلوع الشمس بإنشاد بعض الأغانى التي تدعو الآلهة للاستيقاظ ثم يقدمون إلى تماثيل الإله بعض الحلوى والكعك، وأثناء تناول الإله الطعام تدق النواقيس وتقرع الطبول. وبعد ذلك يمثلون كأن الآلهة تستحم، ويلبسونها ملابسها؛ حيث يجلس الكهنة أمام ألواح لامعة من النحاس تعكس صور الآلهة، ويمثلون أنهم ينظفون لها أسنانها، ويغسلون أفواهها، وتصب المياه في أوعية نحاسية، ثم يلبسون الآلهة ملابسها، وعندئذ يسمح للجمهور بالدخول عليها لتقديم النذور والقرابين لها وبعد ذلك يحل موعد الإفطار الذى يتكون من الأرز المسلوق المخلوط بالسكر.

وفى حوالى العاشرة تتناول الآلهة طعام الإفطار مرة أخرى ثم تغير ملابسها. وبعد تناول طعام الظهيرة يحضر الكهنة الأسرة أمام تماثيل الآلهة لتنام فوقها قليلًا وقت القيلولة. وفى المساء تتناول الآلهة طعام العشاء. وعند منتصف الليل تغطى تماثيلها بالزهور من رأسها حتى قدميها، وتوضع الورود بالقرب من أنفها لتشم عبيرها، وأخيرا تعزف لها الموسيقى، وتنشد لها الأغانى، ثم توضع على الأسرة لتنام، بحيث يكون كل زوج مع زوجته.

و- النذور:

تعد النذور في الديانة الهندوسية من المحددات الرئيسية للعلاقة بين الإنسان والآلهة. وتتفاوت النذور بتفاوت قدرات مقدميها ورغباتهم التي

يريدون تحقيقها من وراء النذر. والنذر كما هو معلوم شعيرة مشتركة بين كل الديانات، ومعناه هو أن يلزم الناذر نفسه بأداء قربة معينة للآلهة أو للإله إذا ما تم تحقيق رغبة له.

والنذور التي يقدمها الهندوس قد تكون تقديم زهور للآلهة أو نقود أو مجوهرات أو أى شيء ذى قيمة، وأحيانًا يكون النذر أداء عبادة من العبادات مثل الصيام أو ذكر الإله. وفى بعض الحالات يلزم الناذر نفسه باعتزال الحياة الاجتماعية، أو الصوم عن الكلام، وهذا النذر الأخير مذكور في بعض الديانات الأخرى.

وقد يأخذ النذر أشكالًا بالغة القسوة؛ حيث يربط الناذر من رجليه ويديه بقطعة من قماش، ويعلق في خطاف، ويترك متدليًّا على هذا النحو لمدة ما حسب المحدد في النذر. والأشد قسوة هو ذلك النذر الذى تتبع فيه الطريقة المسماة بالاستلقاء الثمانى، أى بثمانية أعضاء هى: الرأس، والصدر، والركبتان، والقدمان، واليدان .. حيث يقوم الناذر بالذهاب من منزله إلى معبد قد يكون في بلدة أخرى غير بلدته ربما تبعد أكثر من خمسمائة ميل، ويذهب الناذر إلى هذا المعبد بأن يقطع المسافة نومًا متتاليًا على الأرض؛ حيث يستلقى نائمًا على الأرض مادًا يديه ورجليه ولامسا الأرض بأعضائه الثمانى، ثم يعلم علامة بأصابعه، ثم يقوم ليستلقى مرة ثانية واضعًا قدميه حيث كانت العلامة، ثم يقوم ليستلقى مرة ثالثة وهكذا حتى يصل إلى المعبد ! ومن النذور التي ينذرها الهندوسى كذلك للإله إذا حقق رغبته أن يدور حول شجرة مقدسة أو معبد عددًا من اللفات قد تصل إلى عشرات الآلاف من الدورات. وفى بعض الأحيان تكون هذه

الدورات ليس سيرًا على الأقدام، بل بالتدحرج بجسمه كأنه قطعة صخر أو جزء من شجرة!

س- الأيام المقدسة:

تقدس الهندوسية عددًا من الأيام في السنة، شأنها في ذلك شأن الأديان الأخرى. وهى في تقديسها لبعض من هذه الأيام يمكن المقاربة بينها وبين المسيحية. والأيام التي تقدسها الهندوسية، هى:

(1) اليوم الأول من العام الجديد: وتُقام فيه الطقوس والشعائر طلبًا للتكفير عن الذنوب والآثام.

(2) ليلة يوم الغفران، وهى في شهر يناير عندما يبدأ القمر في دائرة المحاق؛ ومظاهر التقديس في هذه المناسبة متعددة، منها: الصوم، قراءة الكتب المقدسة، ممارسة اليوجا ... كل ذلك طلبًا للغفران.

(3) يوم الشكر، وهو كل ستة شهور بحيث يوافق يوم السبت. ويوجهون فيها الحمد والشكر للإله في صورته الصنمية.

(4) يوم البركة، وهو يقع مرتين في السنة ويوافق يوم الأربعاء؛ حيث يغتسلون في نهر الجانج المقدس؛ طلبًا للبركة الإلهية.

(5) يوم خلق الأرض، وهو كذلك مرتين في السنة، لكن في موعد آخر، ويوافق يوم الأربعاء؛ حيث يحتفلون باليوم الذى خلقت فيه الأرض.

(6) يوم عودة الملك ومعه الملهمون الذين نزلت عليهم كتب الفيدا، ويُسمى اليوم الأصفر.

ويتطهرون فيه ويمارسون طقوسًا لهم[1]. ومن بين هذه الأيام المقدسة نلاحظ وجود تشابه بين الهندوسية واليهودية في تحديد بعض هذه الأيام، مثل اليوم الأول من السنة الجديدة، ويوم الكفارة ويوم الشكر[2]. كما يوجد تشابه بين الهندوسية والمسيحية في تحديد يوم مقدس للاغتسال أو الغطاس[3]. وهى تشابهات في فكرة التقديس، وإن كانت توجد اختلافات في المضمون والطريقة وتحديد الميقات.

الديانة البوذية

الموقع التاريخي للبوذية قبل الهندوسية، لكن فضلنا الحديث عن الفيدية والبراهمانية والهندوسية على التوالي ؛لأنها مجموعة واحدة تسير في تقليد واحد، وكل منها بالنسبة إلى ما قبلها بمثابة العهد الجديد إلى العهد القديم. ومع أن البوذية تشترك في بعض المعتقدات مع التقليد الهندي السابق عليها، مثل الكارما و تناسخ الأرواح؛ إلا أنها تميزت عنه بعناصر جوهرية، مما يتيح لها أن تفتح تقليدًا نوعيًّا جديدًا داخل التقليد الكلاسيكي الأعم.

ومؤسس البوذية هو «سيد هارتا» (563 - 483 ق.م)، ويطلق عليه اسم «بوذا»، أى الرجل المستنير أو الملهم أو اليقظ أو البصير. وقد ارتد عن الديانة البراهمانية، بسبب فوارقها القبلية المقدسة وطقوسها المعقدة في عبادة

(1) انظر: د. رؤوف شلبى، آلهة فى الأسواق، الكويت، دار القلم، 1983، ص 118.

(2) لمعرفة التفاصيل عن الأيام والأعياد المقدسة عند اليهود، راجع: سفر اللاويين، الإصحاح الثالث والعشرون.

(3) راجع عن أعياد المسيحيين: القمص يوحنا سلامة، اللائى النفسية فى شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، القاهرة، مكتبة مارجرجس، 1994، ص 367، وما بعدها.

الآلهة والتضحية لها، وسعى إلى التحرر من الألم، بواسطة الكمال الأخلاقى الذى يمكن بلوغه بالانسحاب من الحياة (الانعتاق الجميل)، والانغماس في النيرفانا. وقد أنكر بوذا وجود الإله الخالق، وأنكر أيضًا ديانة الفيدا، ولكنه قبل تعاليمها عن دورة الميلاد والممات (السانسارا)، وعن الجزاء (الكرما) التي تشير إلى أن تناسخ الأرواح لا يتوقف على القبيلة التي ينتمى إليها إنسان ما، ولا على التضحيات التي قدمها، و إنما يتوقف على حسنات الإنسان وسيئاته فقط.

ونظرًا لأن بوذا وضع ديانة بلا إله، فقد نظر إلى الجوهر بوصفه عدمًا. فالأصل في الوجود هو العدم، والنهاية كذلك هى العدم. ولهذا فإن المبدأ الأساسي للوجود في حالة سكون أبدى بلا نشاط أو إرادة، ولا يمكن أن يتغير في ذاته. والأشياء الموجودة في العالم ما هى إلا صور في حالة تغير، وعند تحليلها فإنها تفقد كيفيتها، حيث إن كل الأشياء واحدة في جوهرها الذى هو العدم[1].

ولقد جاءت طريقة الخلاص في هذه الديانة تبعًا لتصورها للجوهر. فلما كان الجوهر هو العدم، فإن الخلاص يكون عن طريق التوحد مع العدم والانعتاق من الوجود- من الحياة بكل مظاهرها: الوعى، العواطف، الإرادة[2]. فالسعادة هى في الاتحاد مع العدم، والتحرر التام من الوجود، و يقترب الإنسان من السعادة القصوى بمقدار تحرره من مظاهر الوجود، بل إن الإنسان يمكنه أن يتحرر من الشيخوخة والموت والمرض عن طريق

(1) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 256.

ومحاضرات فى فلسفة التاريخ، 2، ص 139.

(2) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 256.

التأمل والعودة إلى الباطن والوصول إلى حالة النيرفانا، وبوصول الإنسان إلى حالة النيرفانا يكون قد نجح في عملية التوحد والتحرر من عملية التناسخ[1]. ومن هنا يطلق على هذه الديانة وصف «الديانة المستغرقة في ذاتها.

وللبوذية تاريخ طويل، تبدلت فيه عقائدها على مر الزمان، وتنوعت مدارسها تنوعا كبيرًا[2]. ولم تكن في البداية دينًا، لكنها صارت كذلك نتيجة ما دخلها فيما بعد على يد أتباعها. ويوجد بالبوذية تيار إنساني وهو الأصلي، وهو المعروف بـ«الهنايانا» أو «الترافادا»، والذى ينظر إلى البوذا على أنه حكيم لا إله. وينتشر هذا التيار في تايلاند وبورما وسريلانكا وكمبوديا ولاوس.

وتيار مؤله لبوذا، وهو تيار متأخر يعرف بـ«الماهيانا»، ويعتبر بوذا كائنًا إليهيًّا نزل إلى الأرض لكي يرشدها إلى الخلاص. وينتشر هذا التيار في التبت وفيتنام ومنغوليا ونيبال واليابان وكوريا، وجزء من الهند.

ويعبد بوذا في الهند بنفس هذا الاسم «بوذا»، وفى الصين تحت اسم «فو Foo». وفى سيلان تحت اسم «جواتاما». لكن البوذية تأخذ بين التبت والمغول في وسط آسيا وسيبريا- صورة اللامية، حيث معبودهم يدعى «اللاما». ويفوق عدد أتباع البوذية عدد المسلمين، كما أن عدد المسلمين يفوق عدد المسيحيين[3].

(1) Ibid., p. 253ff.

(2) د. سرفبالى رادا كرشنا، و د. شارلز مور، الفكر الفلسفى الهندى، ترجمة ندره اليازجى، بيروت، دار اليقظة العربية، 1967، ص 353 - 5 35 وما بعدها.

(3) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 251-2.

الديانة اللامية

تعتبر اللامية متطورة عن البوذية، والجانب المشترك بينهما هو وجود نوع من الإيمان بإنسان ما ذي طابع إلهي بوصفه حاملًا للوحدة الجوهرية للمطلق، لكن البوذية الأصلية- عند هيجل- تدرك هذه العلاقة على أنها علاقة بإنسان ميت، بينما في اللامية هي علاقة بإنسان حي هو اللاما. لكن هذا لا يعنى الارتباط بما هو جزئي في الإنسان، و إنما الارتباط بما هو كلى فيه، بما هو ماهوى فيه ومعبر عن الوحدة الجوهرية للروح، ومن ثم فإن هذا البوذا أو اللاما يمثل نبع العطاء الروحي، لكن لا يعنى هذا أنه سيد للطبيعة بحيث يمكنه القيام بالسحر والمعجزات، و إنما يعنى فقط أنه متميز عن الطبيعة بكل ما فيها من جزئيات. ومن هنا نفهم كيف أن البوذية، واللامية بوصفها صورة معدلة منها، قضت على الديانة «الشامانية» في منغوليا القائمة علي السحر والمعجزات والشعوذة[1].

يوجد ثلاثة من اللاما، أكثرهم شهرة هو «الدلاى لاما» الموجود في لهاسا بالتبت، وثانيهم هو «التشو- لاما» الموجود في تشو- لامبو، و يدعى أيضًا بانتشن رينبوتشى، أما الثالث فهو الموجود بجنوب سيبيريا[2].

الديانة الجينية والسيخية والمهاريشية:

تعد الجينية والسيخية من ديانات ومذاهب الهند. أما الجينية فهي ديانة

(1) Ibid., p. 265-7.

هيجل، محاضرات فى فلسفة التاريخ، 2، ص 141.

(2) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 264.

منشـقة عن البراهمانية، مثلها مثل البوذية. وقد نشأت في القرن السادس قبل الميـلاد وتدعو إلى التحرر من كل قيود الحياة، والامتناع عن إلحاق أي ضرر بأي كائن حي.

في حـين أن السـيخية ديانة أسسـها نانـاك (1469 - 1539م) الذي كون جماعـة دينية هنديـة تدعو إلى دين جديـد مركب من الديانتين الإسـلامية والهندوسـية تحت شعار (لا هندوس ولا مسـلمين)؛ حيث تزعم أنه لا فارق بين الله في الإسـلام، وفيشـنو الإله الحافظ عند الهندوس. وتدعو إلى الزهد، والإحسان، والتأمل الذي يمكن من رؤية الله في وجوه كل الإنسانية.

بينما المهاريشية مذهب هندي مادي ملحد، ومع ذلك له طقوس كهنوتية تهدف إلى الوصول إلى السعادة الروحية.

دين السماء الصيني

مجموعـة مـن المعتقدات والتصـورات والتقاليـد حول الوجـود والعالم والحيـاة. ولا يطلق الصينيـون عليها اسـم «الدين»، لكـن التحليل النظري يعدها «دينا» لأنها في مجموعها تتصف بمواصفات الديانة حسـب التعريف الأكثر شيوعا للدين.

وهـذه المجموعة مـن المعتقدات والتصـورات والتقاليد هـي الأقدم في الصين، وأساسـها تكريم السـماء بوصفها قوة عليا، سـامية، والخوف منها، وإجـلال الأرواح الكائنـة في جميع أنحائها. ويعتقد الصينيون أن السـلوك الطيب يرضي السماء، ويجلب البركة، أما السلوك الآثم، فإنه يغضب السماء التـي تعاقب مقترفيه بأن تلبسـهم لبـاس الحاجة والفقر. والسـماء تدل على

الكليـة المجـردة وغير المحـددة تمامًا. ونظرًا لما في السـماء مـن تجريد، فإن الإمبراطـور هو الرمز المشـخص المهيمن على الأرض بكل مـا فيها من قوى طبيعيـة وأرواح، وهـو وحـده المرتبط بالسـماء الفارغـة، وكل شيء متعين مستمد من الإمبراطور وخاضع لسيطرته المباشرة[1].

والعبادة في هذا الدين ليست عبادة الإمبراطور، فما هو إلا رمز دينى سام للسماء التي تمثل قوى الطبيعة، بالإضافة إلى كونه مثلًا للأخلاقية الراقية[2].

ولمـا كان الإمبراطـور هو القمة في هـذا الدين، وهو وحـده الذى يملك الاتصـال مع قوى الطبيعة، وهو المجسـد للسـلطة والرئيـس الأعلى للدولة ولدينها، فإنه هو الوحيد الذي يقدم القرابين في الأعياد، و يقوم بتقديم الشكر للسـماء على وفرة الحصاد، والتضرع إليها التماسًـا للبركة عنـد بذر البذور. و إذا كانـت العلاقة العامـة للإمبراطورية مع السـماء متوقفة ومحصورة في الإمبراطـور، فإن هناك مجـالًا لعلاقة خاصـة، إذ يوجـد روح حارس لكل مقاطعـة، وكل مدينة، وكل جبـل، وكل نهر، وتخضع كل تلك الأرواح لإمرة الإمبراطور[3].

والأخـلاق التـي يقوم عليها دين السـماء الصيـنى هى التـي تبلورت مع كونفوشـيوس الذى قام بتقديم وتطوير مذهب أخلاقى اعتمادًا على عناصر

(1) Ibid., p. 237. -8.

(2) P. C. Hodgson, Editorial Introduction to Hegel's Lectures on the Philosophy of Religion, p. 43.

(3) هيجل، محاضرات فى فلسفة التاريخ، الجزء الثانى، العالم الشرقى. ترجمة وتقديم وتعليق د. إمام عبد الفتاح إمام، وراجعه على الأصل الألمانى د، محمود حمدى زقزوق، القاهرة، دار الثقافة، 986 1، ص 86.

Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p243.

أخلاقيـة موجـودة في التاريخ الصيني. وكونفوشـيوس معلـم أخلاقي وليس فيلسوفا تأمليًّا[1]. ويُطلق على هذه الأخلاق: أخلاق الدولة، وهي ذات طابع أبـوي بطرياركي، فهناك الواجبات تجـاه الإمبراطور، وواجبات الأبناء نحو الآبـاء، وواجبات الآباء نحو أبنائهم، وواجبات الأشـقاء والشـقيقات تجاه بعضهم البعض.

والواجبات الأخلاقية عندهم، ذات طابع صوري شكلي، وهي غير نابعة من شـعور حر، داخلي، ولا ترتكز إلى حرية ذاتية، فالجميع بما فيهم العلماء خاضعون للمراقبة ولأوامر الإمبراطور[2].

ديانة الطاو (العقل أو الطريق)

الذي طور هذا الدين، هو لاو- تسي المولود آخر القرن السابع قبل الميلاد، وهو أقدم من كونفوشيوس، ولكنه عاصره في جزء من حياته. ويذكر هيجل أنه ليس بمؤسس للمذهب، وإنما مطوره[3].

وتحتـل أعمال لاوتسي مكانًا مرموقًا عنـد الصينيين، وإن كانت لا تحظى بالمرجعية التي تحظى بها أعمال كونفوشيوس.

ويحتوي كتاب لاوتسي الرئيسي على قسـمين، هما: الطاو- كينج، والطي- كينـج. ويطلـق عليـه غالبًا اسـم «طاو- طـي- كينـج»، أي كتـاب العقل والفضيلـة. والطاو هو العقل الأصلي الذي خلق العالم والذي يسوسـه مثلما

(1) Ibid., p. 246.

(2) هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، 2/ 95.

(3) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p. 246.

يسوس الروح الجسد، ومعناه أيضًا: الطريق، المنهج، المبدأ، الجوهر، و إذا ما تم اختزال كل هذه المعانى فإنها تلتقى في معنى روحي رمزى يشير إلى الطريق بوجه عام، الاتجاه، مسار الأشياء ومبدأ وجود كل شيء[1]. ويجب أن يكون الإنسان بدون هوى حتى يمكن أن يتأمله في بهائه؛ فالأهواء تجعل الإنسان لا يراه إلا في نقصه، أى لا يراه إلا محدودا.

أما الطاو- سيين، فيعنى أنصار العقل، «وهم يقضون حياتهم في دراسة العقل(=الطاو)، و يؤكدون أن الذى يعرف العقل في ماهيته يحوز العلم الشامل، وعلاج كل مرض، والوسيلة الكلية التي تحقق الخلاص، الفضيلة الكاملة، ولذا فإنه سيملك قوة أعلى الطبيعة، و يستطيع الارتفاع إلى السماء طائرًا عبر الأجواء، ولا يفنى أبدًا»[2].

و يوجد مقطع شهير في كتاب لاوتسى يثير كثيرا من التساؤلات، ولاسيما من قبل المبشرين المسيحيين، يتحدث فيه لاوتسى عن أن العقل خلق الواحد، والواحد خلق الاثنين، والاثنان خلقا الثلاثة، ولكن الثلاثة خلقت العالم كله. ولقد اعتبر بعض المبشرين هذا المقطع محتويا على مفهوم قريب من مفهوم التثليث المسيحى.

و يشير إلى هذا المعنى أيضًا مقطع آخر ذكره راموزا يقول فيه لاوتسى: «إن ذلك الذى تتدبرونه ولا تبصرونه يسمى J، و إن ذلك الذى تسمعونه ولا تفهمونه يسمى CHI، وذلك الذى تبحث أيديكم عنه ولا تتمكن من إمساكه يسمى WEI». وفي النص اللاتيني: «أنت تبصره ولكن لا تراه،

(1) Ibid., p. 244.
(2) Ibid., p. 245.

ولهذا يسمى J، وأنت تصغي السمع ولكن لا تسمعه ولهذا يسمى CHI، وأنت تبحث عنه بيدك ولكن لا تصل إليه، فاسمه WEI». وهذه الجوانب الثلاثة لا نستطيع معرفة حقيقتها أو كنهها، إذ هي متوحدة معًا وليست سوى شيء واحد يعتبره لاوتسي «الشكل بدون شكل، الصورة بدون صورة، إنه الشكل المطلق، والصورة المطلقة، والوجود الذى لا يمكن وصفه. وعندما نسير إلى أبعد من ذلك لا يمكن أن نتعرف على أي مبدأ؛ فلا يوجد شيء أعلى منه»، ولذا «أنت تسير أمامه دون أن ترى وجهه، وتسير خلفه دون أن ترى ظهره». إن أساسه في اللاوجود، فهو المطلق أو العدم. والإنسان الذى يدرك الشرط الأول القديم للعقل، والذى يمكنه أن يعرف ما هو محيط به حاليًّا، يستحوذ على سلسلة العقل[1].

ديانة الشنتو

الشنتو هي الديانة الرئيسية في اليابان، وبطبيعة الحال يوجد في اليابان ديانات أخرى، أهمها: البوذية والمسيحية والإسلام. لكن الشنتو ديانة أصلية ظهرت في اليابان منذ وقت طويل وهي الديانة الرسمية. ولفظ «الشنتو» نفسه معناه في اليابانية: الطريق إلى الكامي.

والديانة الشنتوية عبارة مجموعة المعتقدات الدينية الأصلية في اليابان، والمعتقد الرئيسي فيها هو الإيمان بالقوى الروحية الغامضة المسماة بـ «الكامي Kami»، وهي شيء قريب من مفهوم الآلهة. ويوجد الكامي في أشكال متنوعة. وهو موضوع العبادة. وثمة اعتقاد مبكر تاريخيًّا بأن الكامي

(1) Hegel, Lectures on the History of Philosophy, pp. 124 ff.

هـي أرواح الأسـلاف، ثم تطـور مفهوم الكامـي فأصبح يدل عـلى أرواح الكائنات الفعالة في الوجود، وهي في ذاتها غير منظورة، وتشـمل قوى كثيرة في الطبيعة خيّرة وشريرة معًا، ومن الكامي مثلًا «إماتراسـو» إلهة الشـمس التي تنير السـماء. وأصبحت هذه القوى لتفوقها أو سموها، موضوعًا للتوقير والاحترام. ويعبد الشنتويون الكامي من خلال الطبيعة. فالكامي يوجد في كل شيء: الأشياء الحية وغير الحية، كالنباتات والطيور والوحوش والأسماك والصخور والحيوانات والجبال والنجوم وغيرها من عناصر الطبيعة.

ومـن الجدير بالذكـر أنني تأكدت من صحة هذا المعـنى للكامي عندما قابلت أحد الباحثين اليابانيين أثناء دراستي لدورة متقدمة في تطوير التعليم بالصين، ومما قاله لي: «إننا عندما نصلي نشكر كل شيء في الوجود».

وكان الكامـي السـماوي في الشـنتوية المبكرة أكثر سـموًّا من الكامي الأرضي أو يقيـم في موضوعات رمزية كالمـرآة التي يعبدونه على صورتها في هياكل الشـنتو، وتتحدث أساطير الشنتو عن عدد ضخم من الكامي للتعبير عن العدد اللامتناهي، بل تظهر أعداد جديدة من الكامي بصفة مستمرة.

وكان للبوذيـة تأثـير واضـح على الشـنتوية ابتـداءً من القرن السـادس الميـلادي. حيـث آمنت بالآلهـة البوذية لكنها ظلت تؤمن بشـكل جوهري بالكامـي، وحدث نوع من الدمج بين الاثنين، حيث صار كثير من اليابانيين يؤمنون بالبوذية، وفي الوقت نفسـه يؤمنون بالشـنتو. واستُخدمت التماثيل والصـور البوذية لتمثـل الكامي في بعض الأحيان. كـما صارت الكامي هي الحارسـة للمعابد، واسـتعارت الطقوس البوذية في العبـادة والتأمل وطقوس التضحية والموت والجنازات والاحتفالات. ومعظم اليابانيين يقيمون الجنائز

في المعابد البوذية، بينما يحتفلون بالزواج في المعابد الشنتوية. ويعتنق حوالي 75 %.

لكن مع مطلع العصر الحديث في اليابان في القرن التاسع عشر، ظهر من يحاول تخليص الشنتوية من النفوذ البوذي. وفي وسط القرن التاسع عشر تم إعلان الشنتو ديانة وطنية في عام 1868م مع ظهور تيار «دولة شنتو»، الذي يعمل على تسييس الشنتوية ويربط بينها وبين النظام الإمبراطوري، ويُرجع الإمبراطور والعائلة المالكة لجذور إلهية. لكن هذا التيار تراجع نهاية الحرب العالمية الثانية في عام 1945م بعد هزيمة اليابان وضرب الولايات المتحدة لها بالقنابل الذرية؛ ورفض الإمبراطور العقيدة التي ترجعه لأصل إلهي.

الديانة الزرادشتية والمجوسية

الزرادشتية هي ديانة زرادشت (660 - 583 ق. م). وقد دعا على الأرجح إلى وحدانية الله وأثبت له صفات الخير والقوة، وأكد على حكمته ورحمته ومحاربته للشر والفساد، ورفض عقائد الشرك والوثنية وقوى الفساد. لكن هناك من ينسبون القول بالثنائية إلى زرادشت، أي القول بإله للخير وإله للشر، وأنه رسول إله الخير. ومن وجهة نظري أن هذا تحريف طارئ على الزرادشتية، فالزرادشتية في منشئها الأول كانت توحيدية، ثم تحولت بعد زرادشت لاحقًا إلى مجوسية ثنائية.

ومما يؤكد هذا أن زرادشت قال في «الجاثات»[1]؛ من كتاب «أفيستا»،

(1) انظر هذه النزعة التوحيدية في الترجمة العربية المسماة «ترانيم زرادشت» ترجمة د. فيليب عطية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1993.

وهـو يخاطب الإله أهـور امـزدا: «إني لأدرك أنك أنت وحـدك الإله وأنك الأوحـد الأحد، و إني من صحـة إدراكي هذا أوقن تمام اليقـين من يقيني هذا الموقن أنك أنت الإله الأوحد.. اشتد يقيني غداة انعطف الفكر مني على نفسي يسـألها: من أنتِ؟ ولفكري جاوبت نفسي؛ أنا؟ إني زرادشت أنا، وأنا؟ كاره أنا الكراهية القصوى الرذيلة والكذب، وللعدل والعدالة أنا نصير! من هذه أتفكّر الطيبـة التي تحوم في خاطري، ومن هذا الانعطاف الطبيعي في نفسي نحو الخـير، ومن هذا الميل الفطري في داخلي إلى محـق الظلم و إحقاق الحق أعرفك.من هذه الانفعالات النفسـية والميـول الفكرية التي تؤلّف كينونتي وتكوّن كياني ينبجس في قلبـي ينبوع الإيمان بأنك أنت وحدك أهورا مزدا، الإله وأنك الأوحد الأقدس الخيّر الحق».

وفي «الجاثـات» أيضًا تأكيـد على أن وحدانية أهورا مـزدا تنـزهت عن الشرك تنزهًا إلى درجة محا معها وجود الأرباب وجعلها وهمًا، هو إله لا يُسمع ولا يُرى ولا يكلّم، ولكنه يتجلى على صفحة المخيلة سـيدًا محاطًا بحاشية من الأرواح الطيبة أو الملائكة متفاوتة الرتب يصدر عن حفيف أجنحتها دويٌّ يملأ الرحاب السماوي، وبه من كل جانب يحف، تبـرز الملائكة ككائنات مجنحـة تكوينها نوري، كائنـات نورية، لأنها من الإله نفسـه، قد انبثقت وانتشرت في ملكوته السـماوي كحاشـية له وكجنود بأمره تأتمر بيده لينفرد من بينها سـتة هم الـرؤوس من الملائكـة يحملون أسـماء: العقل والحكمة والتقى والسـلوك الطيب والخلود. وهذه أسـماء الصفات في الإله نفسه، منه انتشرت ككائنات نورية، ولكن هذه الملائكة ليسـت أربابًا فلا يتجه إليها أحد بالعبادة، بل هي نفسها عابدة تتجه إلى من عليه قد قصرت العبادة.

لكن حسب الرؤية التقليدية للزرادشتية، وحسب تشكلها الأخير، فإنها ديانة قد حولها أتباعها إلى ديانة شركية تؤمن بإلهين، ووضعها في آخر المرحلة الطبيعية لأنها لا تزال تمزج بين الإلهي والطبيعي. لكنها تمتاز عن الديانات السابقة عليها بأنها قلصت عدد الآلهة إلى اثنين.

وتؤمن الزرادشتية -حسب كتاب «الزند-أفيستا» ومعناه (شرح أو تفسير القانون)- بنوع من ثنائية الإلهي: الأول باسم الإله أهورامزدا، وهو الإله المضيء والظاهر في ذاته، ونقيضه هو الإله أهريمان، وهو إله الظلام، وهو نجس في ذاته.

وأهورامزدا هو نور غير قابل للانفصال عن الموضوعات الحسية رغم توجيه الابتهالات إليه باسم الملك والقاضي والأكبر ...، إلخ. وهو ليس ذاتًا حرة متحررة عن الحس نظير إله اليهود، كما أنه ليس ذاتا روحية وشخصية نظير إله النصارى الذى يُمثَّل كروح واع لذاته ولشخصيته الواقعية، وليس كمثله شيء مثل الله في الإسلام. إن أهورامزدا إذن هو إله النور والأنوار، لكن ألوهيته لا تزال غير قادرة على التجرد من الموضوعات التي هى غارقة فيها. .، إنها ألوهية كامنة في الخصوصى والفردى مثل كمون النوع في الأجناس والأفراد. نعم إن أهورامزدا من حيث هو هذه الكلية، يحتل مكانة فوق الخصوصى، و يعد هو الأول والأرفع، .. لكنه لا يوجد إلا في كل ما هو مضيء ونقى، مثلما لا يوجد أهريمان إلا في كل ما هو قاتم، ومظلم، وفان، ومريض[1].

إن الواقع في الديانة الزرادشتية- وذلك في جانبه الخير- ممثل لوجود

(1) هيجل، محاضرات فى علم الجمال، 2، ص 42 وما بعدها.

أهورامـزدا. ذلك أن كل ما هو مصدر للنماء والحيـاة وكل ما يصون البقاء، متمركز في النور والطهر والنقاء، وبالت إلى في أهورامزدا، ، والحقيقة والحب والعدل، وكل كائن حي، والروح، والغبطة .. إلخ، كل ذلك يعتبره زرادشت مضيئا و إلهيًّا في ذاته، دون تمييز بين ظاهريات الطبيعة وظاهريات الروح، تمامًا مثلما أن النور والصلاح، الصفات الحسية والروحية، تتطابق و تتداخل في أهورامزدا ذاته.

ومن ثم يذهب زرادشـت إلى أن تجـلى الخليقة يعبر عن جوهرية الروح والقوة وجميع أشكال الحركات الحيوية، وذلك بقدر ما تنزع إلى صون ما هو صالـح، و إلى إزالـة ما هو طالح وضار في ذاته، عـلى اعتبار أن ما هو واقعي وصالح لدى الناس والحيوانات والنبات ما هو إلا النور، وحسب درجة هذا الضياء وكميته يرتهن تفاوت تجلي أو سطوع ا لأشياء[1].

لكـن مملكة النور لا تسـتقل وحدها بالعالم عند زرادشـت، و إنما تقف عـلى النقيـض منها مملكة الظلام، وعلى رأسـها أهريمان. و ينتمـي إليها الشر الروحـي والطبيعـي، وبصفـة عامة كل ما هو هدام وسـلبي. غـير أنه غير مسموح لأهريمان إله الشر أن يوسع نفوذه و يبسط سلطانه، حيث إن العالم في مجموعه يسـعى إلى تدمير مملكـة الظلام و إزالتها نهائيًّـا، وتأمين حضور أهورامزدا وسيطرته على كل مناحي الحياة[2].

ووفق هذا التصور لطبيعة الإلهي، تأتي العبادة في الزرادشتية، حيث ينبغي على الإنسـان أن يكرس حياته كلها من أجل مملكة النور، فيعمل على تطهير

(1) Hegel, Lectures on the Philosophy of Religion, p.301, 304ff.
(2) Ibid., p.301, 304, 312.

جسمه وروحه، و إشاعة الخير حوله، وأن يتعبد بالقول والفكر لأهورامزدا وكل ما هو منبثق عنه، ومحاربة أهريمان وكل نشاط منبثق عنه.

أى أن المجـوسى لا يوجـه صلواته فقط إلى أهورامـزدا، و إنما كذلك إلى جميـع ما انبثق عنه تبعا لدرجته ومقامه مـن الطهارة والصلاح. فبعد الصلاة إلى أهورامزدا يصلى المجوسى إلى «الأمسشسباندات» وهى الانبثاقات الأولى لأهورامزدا والأكثر سـطوعا وتجليًا، والتى تحيط بعرشه، وتساعده في حكم العالم.

وتسـتهدف الصـلاة التـي توجه إلى تلـك الأرواح السـماوية- خواصها ومهامها بالتحديد، فإذا كانت من الكواكب، فإن الصلاة توجه إليها في زمن ظهورهـا، وترتفع الابتهالات إلى الشـمس نهارا، وتختلـف طبيعة الابتهالات تبعًا لحالة الشمس، من شروق إلى تعامد إلى غروب. ويصلى المجوسى في فترة الضحى لأهورامزدا في المقام الأول حتى يزيد من سـطوعه وتجليه، وعندما يأتى المساء يصلى توسلا لأهورامزدا من أجل أن تتم الشمس مسارها.

وعندمـا جاء الإسـلام نهى عـن الصـلاة في تلك الأوقـات درءًا للتشـبه بالمجوسـية وحرصًـا على التفرد. كـما يوجه المجوس صلواتهـم إلى الأرواح الطاهـرة من السـلف، أيًّا كان الوطـن الذى تسـتوطنه، وخصوصًا إلى روح زرادشت، وزعماء المدن والطبقات الاجتماعية.. ويصلى المجوس كذلك إلى «مترا» إله العدل وقاضى الأموات، ومخصب الأرض والصحارى، والمدافع عن السـلام ضد عوامل الحرب والصراع. ويرفعـون ابتهالاتهم أيضًا إلى مظاهر الطبيعة من حيوانات وأشـجار وجبال.. باسـم أهورا مزدا، تقديرًا لخدماتها للإنسـانية. وتوصى «الزندافسـتا» بإلحاح على وجوب التمرس على فعل الخير

وطهـارة الفكر والقول والعمل، والاقتداء بأهورامزدا وكل الأرواح الطيبة، والسعى إلى تطهير الطبيعة، و إشاعة نور الحياة، من خلال الصدقات، وعيادة المرضى، وغرس النبات، وحفر الآبار... إلخ[1].

إذن فلقد أصبح الإله مع الزرادشتية أكثر تحديدًا فهو الخير، على العكس مـن «براهما» الذى كان بلا تحديد، وعلى عكـس الجوهر عند البوذية الذى كان عدمـا. لكـن لا يزال هـذا الإله أحـادى الجانب، لأن هنـاك إلهًا آخر يناقضه هو أهريمان إله الشر.

وكانت الزرادشتية هي الديانة الرسمية في العهد الساساني في القرن الثالث الميلادي في فارس، لكن كان بجوارها عقائد أخرى تنتشر بدرجات متفاوتة مثـل المانوية، والمزدكيـة، واليهودية، والنصرانية. ولما جاء الإسـلام اعتنقه أغلـب الفـرس. لكن لا يزال ثمة وجود قليل للزرادشـتيين جنوبي خراسـان بإيـران، وبومباي بالهنـد، وبعضهم هاجر إلى الولايـات المتحدة وبريطانية وكندا وأستراليا ونيوزلاندة.

الديانة اليزيدية Yazidi

ديانة شرق أوسطية تمثِّل مزيجًا من عناصر زرادشتية، ومانوية، ويهودية، ومسـيحية ونسـطورية، و إسـلامية. ويوجـد أتباعهـا في العـراق، وتركيا، وسـوريا، وأرمينيـا، والقوقـاز، و إيران. يتحـدث أكثرهم اللغـة الكردية. واعتقد اليزيديون أنّهم خلقوا بشـكل مميز عن بقيّة البشر ويعزلون أنفسهم عن بقيّة المجتمع.

(1) هيجل، محاضرات فى علم الجمال، 2، ص 42 وما بعدها.

وفقًا للاعتقاد اليزدي، هناك سبعة ملائكة يحكمون الكون، خاضعون لإله أعلى. هم عزازيل (طاووس ملك كبير الملائكة)، ودردائيل (شيخ سن)، وإسرافيل (شيخ شمش)، وميكائيل (شيخ أبو بكر)، وعزرائيل (سجادين)، وشمنائيل (شيخ ناسر دين) ونورائيل (شيخ فخر دين).

ويعتقد اليزيديون أن الإله في كل شيء، والأشياء والظواهر والمخلوقات أجزاءٌ منه، وتجسيد لإبداع الذات الإلهية وقدرتها. ولذا يقدسون الكون وظواهره مثل الشمس والقمر والسماء إلخ، ولذا أدرجنا هذه الديانة في منظومة الديانات الطبيعية. وهم يؤمنون أيضًا بتناسخ الأرواح، وأن الروح أزلية وتنتقل بين الأشخاص المتعاقبين.

ويعتقد اليزيديون أن الله قد أعاد عزازيل «طاوس ملك» -بعد توبته من عصيان أمر السجود لآدم- إلى موقعه رئيسًا للملائكة. وهو (ابليس) من وجهة نظر أتباع الديانات الكتابية، وقول اليزيديين بتوبة الشيطان، أكسبهم سمعة غير مستحقة بوصفهم عبدة للشيطان. وفي الموسوعة البريطانية رواية أخرى «أن الإله قد أمر كل الملائكة بأن يسجدوا لآدم، وكان الحكمة من وراء ذلك هي اختبار الملائكة، فقد كان الله قد أخذ عهدًا من الملائكة السبعة بأن لا يسجدوا لغيره. فسجدوا كلهم إلا «طاووس ملك»، رفض ولم يسجد، وعندما سأله الله لماذا لم تكن من الساجدين؟ قال: عندما خلقتنا أمرتنا يا ربنا أن لا نسجد إلا لك، وأنا لم ولن أسجد لغير وجهك الكريم. هنا نجح طاووس ملك في الاختبار وقد كافآه الله بجعله أقرب المخلوقات إليه وأوكل إليه إدارة الكون. وتشبه هذه القصة تلك الواردة في قصة الخلق الكتابية: اليهودية والمسيحية والإسلامية، لذا فقد

تصور خصوم اليزيدية أن «طاووس ملك» هو الشيطان نفسه واعتبروهم عبدة الشيطان».

وقد كان الشّيخ «أدى» قدّيسهم الرئيس، وهو زاهد ظهر في القرن الثاني عشر. ربما يشتقّ اليزيديون اسمهم من «يزيد الأول» (زهاء 645 - 683م)، الذي قد ينتسبون إليه وربما ينحدرون من مؤيديه.

وهم يصلون في اليوم خمس مراتٍ، كما يصومون في العام أكثر من مرة، والشمس هي قبلتهم بوصفها أعظم ما خلقه الإله.